الصور البلاغية فى المواعظ النبوية

دراسة بلاغية تحليلية

إعداد

أ.د/ نادية خميس على الحناوي

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبى الهادى الأمين الذى أرسله الله نوراً وهداية للعالمين بلسان عربى مبين فبشر وأنذر، ورغب ورهب، وبلغ ما أنزل إليه من ربه فكان نعم المؤتمن الأمين، وصلى الله علي آله الأطهار وصحبه الأخيار ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين.

وبعد ....

فإن الرسول الكريم أدبه العليم الحكيم خير تأديب، وثقفه خير تثقيف، فصدرت منه حكم خالدات، ومواعظ بالغات، كان لها أثرها فى تربية النفوس وإصلاحها، وتقويم الأخلاق وتهذيبها.

والأحاديث الشريفة الثابتة عن رسول الله – ﷺ - إضافة لما اشتملت عليه من تشريع وتوجيه وإرشاد، فهى مدرسة فى البلاغة والبيان، فالسنة بيان لأحكام القرآن، وتفصيل لما أجمل وتطبيق له، وقد استعان النبى الكريم – ﷺ - فى هذا البيان بشتى وسائل الإيضاح، وأساليب التصوير وذلك لهدف نبيل وغاية سامية، وهى توضيح الغامض، وتقريب البعيد إلى الأفهام، كى يكون تعبيره أكثر تأثيراً فى نفوس سامعيه، فيحثها على الخير ويرغبها فيه، ويدفعها للفضيلة، ويبعدها عن الشر، ويرهبها منه، ويمنعها عن الرذيلة.

والبيان النبوى بدر ساطع، وبحر زاخر، وكنز وافر، يستضيء بنوره الباحثون، وينهل من فيضه الدارسون، ولا تفنى عجائبه السنون، فدفعتنى الرغبة إلى أن اغترف من هذا الفيض النبوى الكريم، فيممت وجهى شطر مواعظه – ﷺ - فى الترغيب والترهيب، وعمدت إلى عدد من الأحاديث المنتقاة الواردة فى كتب السنة الصحيحة وعلى رأسها صحيح البخارى وصحيح مسلم،والتى نحن بحاجة

ماسة إليها فى عصرنا الحاضر ترغيباً وترهيباً نظراً لما أصابنا من وهن فى النفوس وضعف المعتقدات، وما أصاب مجتمعنا من سوء فى العلاقات.

وتناولت هذه الأحاديث بالشرح والبيان كى يتسنى لى التعرف على بلاغته – ﷺ - وبراعة بيانه التى بهرت العقول وسحرت الألباب، ولا يدركها إلا من ردد النظر فى كتب الحديث، هذا إلى جانب أخذ العظة والاعتبار والأسوة الحسنة من هديه – ﷺ - وقد جاء البحث فى:

- مقدمة.
- وتمهيد يشمل: تعريف الموعظة، علاقة البلاغة بالموعظة، والخصائص البلاغية للمواعظة النبوية.
- ومبحثين:

١- المبحث الأول تضمن:

مواعظه – ﷺ - فى الترغيب.

٢- المبحث الثانى:

مواعظه – ﷺ - فى الترهيب.

- ثم الخاتمة
- وثبت للمراجع.

تمهيد

تعريف الموعظة

الموعظة فى اللغة لها أكثر من معنى فهى تأتى بمعنى النصح والتذكير، وبمعنى العبرة، كما تأتى بمعنى الأمر بالطاعة والتوصية بها.

قال صاحب اللسان: الوعظ والعِظة والعَظه والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب.

وفى الحديث لأجعلنك عظة أى عبرة وموعظة لغيرك [١].

والوعظ: التخويف، والاسم منه العظة، قال الخليل: هو التذكير بالخير، وما يرق له قلبه [٢].

ووعظه يعظه وعظاً أمره بالطاعة ووصاه بها، والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل [٣]. قال تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ** [٤]. أى أوصيكم وآمركم.

بهذا يتبين لنا أن كلمة الموعظة تحمل بين طياتها معانى النصح والتذكير والعبرة، والأمر بالطاعة والتوصية بها، وكل معنى من هذه المعانى موعظة، فالنصيحة موعظة، والتذكير موعظة، والعبرة موعظة، وقد يجتمع كلها أو بعضها فى موعظة بليغة. كما سيأتى

فى الاصطلاح:

حمل النفس ترغيباً وترهيباً لعمل الخير بالترغيب، والبعد عن الشر بالترهيب[٥].

والوعظ: زجر مقترن بتخويف، والمراد بالزجر التخويف بلطف. قال الإمام النسفى: الموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة. [٦]

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة وعظ.
(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة وعظ.
(٣) المعجم الوجيز مادة وعظ. مجمع اللغة العربية.
(٤) سورة سبأ آية ٤٦.
(٥) تفسير الشيخ الشعراوى العدد ٢٢ ص ١٧٨٣.
(٦) تفسير النسفى جـ ١ ص ٣٠٥.

قال ابن القيم: الموعظة هى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة [١].

مما سبق يتضح أن الموعظة نصيحة وتذكير وعبرة وتخويف مضمونها الترغيب فى جنس العبادة وأنواعها، والترهيب من جنس المعصية وأنواعها، بأسلوب يلين القلوب القاسية، ويدمع العيون الجامدة.

وإذا كانت الموعظة الحسنة نصيحة مضمونها ترغيب وترهيب فما المراد بكل منهما: -

الترغيب لغة: رغب يرغب رغبة إذا حرص على الشيء وطمع فيه [٢].

ورغبَّه: أعطاه ما رغب، ورغب فى الشيء أراده فهو راغب، ورغب إليه ابتهل وضرع وطلب [٣].

فى الاصطلاح:

كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه [٤].

والترغيب يكون فى جنس العبادة وأنواعها.

والترهيب لغة: رهب يرهب رهبة ورُهبا: أى خاف والرهبة الخوف والفزع، وأرهبه ورهبه واسترهبه أخافه وفزعه [٥].

فى الاصطلاح:

كل ما يخيف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله [٦].

والترهيب يكون من جنس المعاصى وأنواعها.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ١٦٧ .
(٢) لسان العرب مادة رغب
(٣) المعجم الوجيز مادة رغب .
(٤) أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ص ٤٢١ .
(٥) لسان العرب مادة رهب .
(٦) أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ص ٤٢١ .

صلة البلاغة بالموعظة

الموعظة وسيلة من وسائل الدعوة قال تعالى: "**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** "(١).

يقول الزمخشرى: " ادع إلى شريعة ربك بالحكمة أى بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، والموعظة الحسنة التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها.

ويجوز أن يريد القرآن، أى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة، وجادلهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف" (٢).

وذلك بأن تخلط الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة، وهى ترقق القلوب، وتعظ النفوس، وتنفذ إلى الوجدان.

وإذا كانت الموعظة أحد أساليب الدعوة، فالبلاغة هى أداة الدعوة وسلاحها المرهف الذى تحقق أهدافها، وتذود عن حماها، قال تعالى: "**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ". (٣)

فدور البلاغة الإفادة والتأثير فى النفس، والقول البليغ هو القول المؤثر الذى يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موقع الإقناع من العقل، والوجدان من النفس، فإذا نجح البليغ فى ذلك كانت النتيجة تحريك الهمة وتوجيه الإرادة، والنبى – ﷺ - كان صاحب الريادة فى ذلك فقد كان أفصح وأبلغ بنى البشر فكان يهيمن على سامعيه، ويمسك بمقاليد نفوسهم، ويصل إلى أعماق مشاعرهم بملاحظة أحوالهم، وجعل كلامه مطابقاً لمقتضاها، كما كان لديه فيض من

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٣٤٩ .

(٣) سورة النساء آية ٦٣ .

الأساليب، ووفرة من وسائل التأثير والإقناع فهو يشرح مبيناً ومقنعاً، أو يعظ تارة مرهباً ومحذراً وأخرى مرغباً ومستميلاً متى اقتضاه الحال، مستخدماً فى كل ذلك الحجة الكاشفة، والتصوير المؤثر، والتأكيد المثبت للمعانى.

الخصائص البلاغية للمواعظ النبوية

لقد أوتى النبى - ﷺ - الحكمة وفصل الخطاب فكان أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأوجزهم كلاماً وأجزلهم لفظاً وأصحهم معنى،و أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل امة بلسانها، ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها، ورسالة النبى – ﷺ - تقوم على الإبلاغ، وأقوى الإبلاغ فى كلامه اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار، وقد دعا إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، هدى الناس من ضلالة، وعلمهم من جهل بطريق لا يمل، فقد رغب الناس فى الإيمان بالله عز وجل والعمل بشريعته وبشرهم بالثواب، كما حذرهم من الكفر والعصيان وانذرهم بالعقاب، فكان القدوة الحسنة مواعظه تمس القلب، وينشرح بها الصدر، تبعث الأمل فى النفس، وتوقظ النفس من سباتها، لما لها من الأسلوب المؤثر والروح الصافية التى تكسب خشوعاً وتقوى الله عز وجل.

وقد اتسمت مواعظه بسمات وخصائص جعلتها مألوفة للعقول، خفيفة على القلوب، مرضية عند النفوس.

من هذه الخصائص:

١- مراعاة مقتضى الحال:

لقد أرسى النبى – ﷺ - قواعد البلاغة وأصولها فى مراعاة مقتضى الحال فى الوقت، والأسلوب، والموضوع.

فكان لا يعظ إلا عند الحاجة وعند وجود سبب يدعو إليها، وذلك خوفاً على السامعين من السآمة والملل، كما أن ذلك فيه تشويق لهم إلى سماع موعظة أخرى، ودفعهم للعمل بما علموا.

عن ابن مسعود –رضى الله عنه- قال: كان النبى – ﷺ - يتخولنا بالموعظة فى الآيام كراهة السآمة علينا [1].

فكان يرغب من يحتاج إلى ترغيب، ويرهب من يحتاج إلى ترهيب، ويجمع بينهما عند الحاجة، ويخاطب الناس على قدر عقولهم وبما يتواءم مع مداركهم ويتناسب مع فطرهم، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها، فيوجز إذا اقتضى المقام الإيجاز ومن الشواهد على بلاغة النبى – ﷺ - متمثلة فى الإيجاز قوله – ﷺ -: "لا تزال أُمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرما "، وقوله –ص- " رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم "[2]

وقوله – ﷺ - " **ثلاث منجيات وثلاث مهلكات أما المنجيات: فخشية الله فى السر والعلانية، والاقتصاد فى الغنى والفقر، والحكم بالعدل فى الرضا والغضب. وأما الملكهات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه** " لله در رسول الله – ﷺ - فما أبين وما أبلغ وما أسمى هذا القول إيجازاً وإعجازاً وحكمة وتنويرا.

ومن صور الإعجاز المبهر فى حديث رسول الله – ﷺ - ما رواه أبو عمرة سفيان بن عبد الله قال: " **قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم** "رواه مسلم

هذا الحديث واحد من النماذج النبوية الكثيرة فى الإيجاز الموصول الأسباب بالإعجاز البيانى وإعجاز المعانى، فإن الرسول – ﷺ - فى حديثه هذا يمثل الإسلام كل الإسلام، فالاستقامة بعد الإيمان تحقق لصاحبها الخير كل الخير، لأن الاستقامة لفظ جامع شامل مؤداه الالتزام بإتباع أوامر الله والانتهاء عما نهى

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١ ص ١٦٢ ، صحيح مسلم جـ ٧ ص ١٠٠ حد باب الاقتصاد فى الموعظة .

(٢) انظر أعلام النبوة ص ٢٦٧ ، البيان المحمدى د/ مصطفى الشكعة ص ٥٥ – ٦٥ .

عنه، ومن الإيجاز المعجز الذى لا يبارى قول الرسول – ﷺ - فى مجال تربية المسلمين على التواصل وتنشئتهم على الفضائل قوله: (**عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع**)، ومخارف الجنة روضاتها.

أيضاً من آيات إعجازه القولى وإيجازه البيانى فى تربية النفس المؤمنة قوله – ﷺ -:(**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**) رواه البخارى

ومن بلاغة الإيجاز فى مجال القناعة: عن عبد الله بن محصن الأنصارى – رضى الله عنه- " **قال: قال رسول الله** – ﷺ -" **من أصبح منكم آمناً فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**." (١)

كماكان يطنب إذا اقتضى المقام الإطناب كالحال عند الالتزام بالأحكام وتوجيه النفوس إلى الفضائل، فكان يكرر القول ثلاثاً ليفهم منه قوله " ﷺ ".

وأكبر شاهد على هذه البلاغة العالية والأدب الرفيع أنه كان يجيب عن السؤال الواحد بإجابات متعددة مختلفة كإجابته عن سؤال: ما أحب أو أفضل الأعمال عند الله؟، فيوصى البعض بإقامة الصلاة، ويوصى البعض ببر الوالدين، ويوصى البعض بالجهاد فى سبيل الله، ويوصى البعض بعدم الغضب وهكذا.

فكان يراعى مقتضى الحال فى تناول الموضوعات.

٢- كما اتسمت مواعظه – ﷺ - بالعموم والشمول فلم تترك شيئاً خيراً إلا رغبت فيه ودعت إليه، ولا شراً إلا حذرت ورهبت منه، وشملت مواعظه شئون الدنيا والآخرة، وقد عم الجميع بوعظه، فوعظ المسلمين وغير المسلمين، والرجال والنساء، والفقراء والأغنياء، والأصحاء والمرضى، فعم كل موعوظ برفقه وشمله بحلمه، فاتعظ بوعظه، واعتبر بنصحه، وتأثر بحسن خلقه.

٣- ومن خصائص مواعظه التنويع فى الأسلوب.

---

(١) رواه الترمذى

كان – ﷺ - فى دعوته متنوعاً فى أساليبه مجدداً فى طريقة عرضه، متفننا فى استخدام وسائل التأثير، فكان يصل إلى النفوس، ويستهوى الأفئدة حتى وصفوه صناديد قريش ورجالها بأنه ساحر لما له من تأثير فى القلوب.

وكان يراعى طبيعة النفس البشرية، وما جلت عليه من ميول، ويتحرى أن يصل إلى هذه النفس من منافذ التأثير فيها، فاستخدم أساليب بليغة متعددة منها: أسلوب الترغيب، وأسلوب الترهيب.

أسلوب الترغيب: ينفذ إلى النفس من خلال ما ركب فيها من رجاء يستحث الإنسان على بلوغ ما يرجوه.

وأسلوب الترهيب يتخذ طريقه إلى النفس من خلال ما ركب فيها من غزيرة الخوف التى تدفع إلى توقى الحظر والبعد عنه.

والخوف والرجاء بقوتهما واختلاطهما بالكيان البشرى يوجهان اتجاه الإنسان فى الحياة ويحددان أهدافه وسلوكه.

أيضاً وكان – ﷺ - يجدد فى طريقة عرضه فيجعل لكل موعظة عبارة، ولكل تذكير إشارة، ولكل نصيحة صوت، ففى مقام الترغيب يأتى بألفاظ التشويق، وعبارات التبشير وأساليب الاستمالة والنصح والإرشاد.

وفى مقام الترهيب يأتى بألفاظ التخويف والتهويل، وعبارات التهديد والوعيد.

وأحياناً يجعل الموعظة فى صورة خبرية، وأحياناً أخرى فى صورة طلبيه، فيستخدم السؤال وصيغ الاستفهام خاصة إذا أراد تقديم مفاهيم جديدة لأمور اصطلح الناس عليها، وفهموها فهماً معيناً فيغير هذا الفهم ويقدم لهم الحقيقة كاملة، ومن ذلك ما رواه ابو هريرة –رضى الله عنه- عن النبى – ﷺ - قال: **"أتدرون ما المفلس"**(١)، وقوله – ﷺ - **"ما تعدون الصرعة فيكم"**(٢).ولا شك أن

(١) صحيح مسلم حديث ٢٥٨١ ، وكتاب البر والصلة باب تحريم الظلم . .

(٢) تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول لأبى الربيع الزبيدى جـ ٣ ص ٢١٥ . .

تقديم السؤال فى الحديث قبل الدعوة إلى مضمونه كقوله " ألا أدلكم " لقرع الأجراس إلى دعوة هامة تستلزم الانتباه وأن الداعية الأعظم ليحرص على ذلك فنراه يسأل قبل أن يتكلم، ويجعل السؤال المفاجئ من بعض سماته الوعظية ولا شك أن الجملة الطلبية أقرب إلى التأثير فى النفس من الجملة الخبرية كما أن الاستفهام فيه استدراجاً للمخاطب.

٤- ومن خصائص مواعظه

أدب الحوار فى كلامه – ﷺ -

كان الرسول – ﷺ - أكثر الناس أدباً فى الحوار، وأشدهم حياء واوفرهم مجاملة للآخرين، كان هذا سلوكه مع الناس جميعاً حتى مشركى قريش إذا حادثهم فى غير شئون الدعوة، فكانت وفرة أدبه، ورقة مجاملته من الأمور التى يعرفها عامة الناس وخاصتهم على وجه سواء.

عن أم المؤمنين " عائشة " –رضى الله عنها- قالت " **ما ضرب النبى** – ﷺ - **إمرأة قط، ولا ضرب خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد فى سبيل الله عز وجل ولا نيل منه فانتقم من صاحبه إلا ان تهتك محارمه فينتقم** "(١)

هذه بعض صفات النبى – ﷺ - ولون من ألوان سلوكه، ويتضح هذا السلوك فى حواره مع غيره من البشر.

ومن أنفس نماذج الحوار ذلك الحوار الذى جرى بين شاب من جمهرة شباب المسلمين وإن لم يكن من خيارهم وبين رسول الله – ﷺ - إن الشاب فى غيبة رشده والانصياع لغريزته يطلب الى رسول الله ما لم يطلبه احد قبله، فهو يطلب أن يؤذن له بالزنا فلما سمعه الناس صاحوا غضاباً، لكن معلم البشرية ومبرى سقامها لا يغضب إنما يقرب الشاب إليه، ويعالج ما يطلبه من الإذن بالفاحشة بالحوار الهادئ الذى يشتمل على الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والنصح

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل جـ ٤ ص ٧٩ ، البخارى ص ٦ رقم ٣٥٦٠ .

الجميل، ومجمل الخبر كما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة –رضى الله عنه –" أتى شاب النبى-ص- فقال يا نبى الله: أتأذن لى فى الزنا، فصاح الناس، فقال عليه الصلاة والسلام: إدنه فدنا منه، فقال أتحبه لأمك ؟ قال: لا،وجعلنى الله فداك، قال: وكذلك الناس لا يحبونهم لأمهاتهم، أتحبه لابنتك ؟ قال لا وجعلنى الله فداك، قال: فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك ؟: قال: لا وجعلنى الله فداك، قال: وكذلك الناس لا يحبونهم لأخواتهم.. حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل مرة: لا وجعلنى الله فداك، والنبى – ﷺ - يقول وكذلك الناس لا يحبونه... ثم وضع رسول الله – ﷺ - يده على صدره وقال: " اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه" فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا [1]. وهكذا فإن التنوع البلاغى فى أساليب الحوار وفنون القول لا يقف فى كلام الرسول –عليه الصلاةوالسلام- عند حد من الحدود أو يقتصر على غاية من الغايات، إنه السيل المتدفق الذى لا يدمر ولا يجتاح، إنما هو السيل الذى يزرع الخير ويشيع النماء وينبت كل نافع من القيم والمعانى المتعددة الألوان المتكاملة الأهداف.

٥- أيضاً من خصائص مواعظه – ﷺ - استخدام أسلوب القسم

كثيراً ما كان يقسم فى مواعظه، ليؤكد الحق ويزيل الشك من نفس كل مرتاب، ويثبت الموعظة فى نفس الموعوظ، ولا يخفى أن للقسم خصائص تمنحه القدرة على التأثير، كما أنه يؤكد صدق الواعظ، وإخلاصه والتزامه، ويدعو إلى احترام الحق، والإيمان به.

كما كان – ﷺ - يستعين ببعض الإشارات ؛ لأنها مما يوضح المعنى ويثبته فى نفوس السامعين، من ذلك ما روى عن المستورد بن شداد –رضى الله عنه- قال: قال رسول الله – ﷺ - « **والله مَا الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ**

(١) البيان المحدمى د/ مصطفى الشكعة ص ٨١

هذه فِى الْيَمِّ - وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ - فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ».[1] ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، وحسن الإشارة من تمام حسن البيان.

كما كثر فى مواعظه – ﷺ - النداء المحمول على الإطلاق نحو: يا أيها الناس، يا معشر المسلمين.

لجذب انتباه السامع، والإشعار بأهمية الأخبار التى تلقى، لاشتمالها على جمل خبرية تقريرية، أو انشائية يراد بها النصح والإرشاد.

أيضاً من الخصائص البلاغية لمواعظه – ﷺ - ضرب الأمثال وصياغة التشبيهات والاستعارات،فقد ضرب أروع الأمثال التى تظهر الحقائق الخفية، وتقرب المعانى البعيدة حتى تصير واضحة مألوفة، كما كثُرت التشبيهات التى تمتاز بالوضوح والدقة والواقعية والجدة، وهى تشبيهات تستمد عناصرها من الطبيعة فهى باقية ما بقيت الطبيعة، ولا يخفى ما لأسلوب التشبيه من مقدرة كبيرة فى فن البلاغة لإبرازه المعنوى فى صورة محسوسة تقرها النفوس.

أيضاً كثر ورود أساليب الاستعارة بما فيها من إيجاز بليغ ومبالغة مقبولة، حيث يعتمد على الإيحاء بالمعنى وتظليله بستار فنى جميل من الغموض الذى يشف ولا يحجب، وهى أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، فهى تصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوى ملموساً محسا[2]ً.

كما تميزت مواعظه – ﷺ - باستخدام أساليب الكناية والتعريض والتلميح، وهذه من خصائص مواعظه وآدابه الراقية البالغة منتهى الحكمة بالتعريض فى الخطاب والتلميح فى الموعظة، فلم يواجه أحداً بخطئه، ولم يذكر أحداً فى موعظة، بل يوجه كلامه بأسلوب العموم، من ذلك ما روى عن عائشة –رضى الله عنها- قالت: صنع النبى – ﷺ - شيئاً ، فرخص فيه فتنزه عنه قومه، فبلغ ذلك

(١) صحيح مسلم شرح النووى حديث رقم ٢٨٥٨ جـ ١٧ ص ٢٩٨ .
(٢) من بلاغة القرآن د/ احمد بدوى ص ٢١٧ .

النبى – ﷺ - فخطب فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنى لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشيه"[1]، فلم يواجه أحد بالعتاب.

ولأسلوب الكناية دوره فى التصوير، وقدرته فى التعبير وأداء المعانى خير أداء، إضافة إلى ما فيه من تأكيد، حيث تعطى المعنى مصحوباً بالدليل، وذلك أبلغ فى تأدية المعنى المراد، وتثبيته فى النفس.

وليس بخاف أن الكناية أبلغ من التصريح، فالتصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، والتبجح فى المخالفة، كما يدعوا إلى الإصرار على العناد.

كما أن أسلوب التعريض يستميل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، والبصائر اللماحة، ويدفع إلى قبول الموعظة والإقلاع عن الخطأ والمعصية.

والناظر فى مواعظ النبى – ﷺ - يجده خاطب النفس فزكاها، وحاور العقل فأقنعه بالحق، فاعتمد على ما يتقبله العقل السليم، وتسلم به النفس، ويألفه الذوق، ولا تقف دونه البديهة، ولا تنكره الحقيقة.

ولهذا اتعظ بوعظه كل موعوظ، وتأثر به كل مستمع، واهتدى به كل ضال.

(١) اللؤلؤ والمرجان ص ٥٠٦ حديث رقم ١٥١٨ ، صحيح البخارى كتاب الأدب باب من لم يواجه الناس بالعتاب .

المبحث الأول
مواعظ النبى " ﷺ "
فى الترغيب

الترغيب فى الصدقة

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِى اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ- فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ " (١)

وفى رواية أخرى:
عَنْ أَبَى هُرَيْرَةَ - رَضِى اللَّهُ عَنْهُ - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ - إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِى كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ ». (٢)

وفى رواية أخرى عن الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ ». (٣)

---

(١) صحيح البخارى ، فتح البارى جـ ٣ ص ٣٥٤ كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب رقم ١٤١٠ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها حديث ١٠١٤ ، سنن النسائى كتاب الزكاة ٢٥٢٤ .

(٣) سنن الترمذى جـ ٢ ص ١٤٤ حديث رقم ٦٦١ .

اللغة : عدل تمرة أى قيمتها أو مثلها ، والعدل بالفتح ما عادل الشيء من جنسه ، وبالكسر ما كان من غير جنسه ، كأن يتصدق بما يساوى تمرة واحدة . انظر لسان العرب مادة عدل=

الصور البلاغية فى الحديث:

بدأ الحديث الشريف بالدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله، لكنه لم يعمد إلى أسلوب الأمر والإلزام، بل إلى أسلوب الترغيب واستمالة القلوب واستجاشة المشاعر بتصوير المعنى فى صورة شاخصة تستهوى الوجدان، وتسترعى الانتباه، وتستميل الأفئدة.

فبدأ بجوهر الموضوع، ودخل فى تكوين الحديث سبع جمل صغار تلاحمت وتماسكت وصارت جملة واحدة، فصار كله نفس واحد لا يتم معناه، إلا بآخر كلمة فيه، هذه الجملة تحكى قصة صدقة من كسب طيب هى عدل تمرة من لحظة أن امتدت بها يد طيبة طاهرة لا تكسب إلا طيبا، ووقعت فى يد الله إلى أن يتلقاها هذا العبد الذى رزق القبول يوم القيامة، وقد صارت مثل الجبل، الذى رباها له ورعاها هو الله صاحب العزو الجلال، اخترقت هذه الصدقة الزمن المألوف الذى ولدت فيه من صالح إلى مسكين أو ابن سبيل ودخلت فى زمن آخر، ونمت نمواً غير مألوف حتى يفاجأ بها صاحبها يوم القيامة وهى مثل الجبل [1].

قوله: " من تصدق "

= **الكسب** : طلب الرزق ، ويحصل بالجهد والعمل . **كسب** : تدل على ابتغاء وطلب وإصابة .

يربيها : ينميها ، **الفلو** : المهر الصغير والفرس إذا فطم ، وسمى بذلك لأنه فل عن أمه أى فصل وعزل ، والفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والجمع فصلان وفصال . لسان العرب مادة فلو وفصل .

المعنى : يوضح لنا الرحمة المهداة مضاعفة الأجر والثواب عند الله لمن تصدق بالمال الحلال فيحدثنا بتفصيل عن ثواب الصدقة القليلة وكيف ينمو هذا الثواب حتى يصير شيئاً كبيراً جداً ، إن الصدقة التى تساوى عدل تمرة من كسب طيب يقبلها الله بيمينه وإنه لإكرام للمتصدق ثم ينميها لصاحبها حتى تكون مثل الجبل ، والحديث الشريف تدريب عملى على الجود ؛ لأن الصدقة القليلة تؤدى مهمة اجتماعية ناجحة وتحقق لصاحبها نجاة من النار ، قال تعالى : (**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**) آل عمران – آية ١٨٥.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ محمد أبو موسى ص ٢٧٧ .

بدأ الحديث بالاسم الموصول **"من"** وهو أداة من أدوات العموم ؛ لإفادة العموم والشمول لكل من تحقق منه الوصف، فيشمل كل من تصدق بصدقة من كسب طيب.

"تصدق": عبر بالفعل الماضى على سبيل الاستعارة فى الفعل باعتبار زمانه، وكثر هذا فى الحديث الشريف عقب آداة العموم للإشعار بأنه من الأمور التى تتحقق فى الوجود كثيراً، فكلما وجدت كان حكمها هو المذكور بعد.
وهذا الفعل المعبر عنه بصيغة الماضى لا يختص الجزاء المذكور بعده بما وقع قبل إخباره – ﷺ - بها، إنما ينسحب الحكم على الحاضر والمستقبل، مدلولها الزمنى غير مقصود فهى مطلقة من المُضى مخالفة لظاهر الوضع، وسرَّ العدول عن التعبير بصيغة الحاضر والمستقبل هو تأكيد حصول الجزاء المترتب على الفعل فى مقام الترغيب تصويراً له بصورة الواقع ليلتزم به.

قوله **" بعدل تمرة "**
جار ومجرور متعلق الصلة، وفيه معنى جليل بأن قيمة الصدقة ليست فى ذاتها إنما فى اليقين الذى وراء هذه الصدقة، وهذه الجملة فيها معنى من قوله – ﷺ - **(اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)** (١)

وكل منهما ترغيب فى الصدقة وحث عليها، وليس المراد الوقوف عند حدود اللفظ إنما ما وراءه من معنى جليل آخر هو أننا حين نتصدق لا ننظر إلى أننا نطعم الفقير ؛ لأن عدل تمرة أو شق تمرة لا يغنى من جوع، إنما الأصل فى الصدقة هو أننا ننقاد ونجيب داعى الله، وهذا هو سر الصدقة فعلى المسلم ألا يستصغر ما تمتد به يده مهما كان قليلاً.

(١) أخرجه البخارى كتاب الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة .

قوله: " من كسب طيب "

شبه جملة صفة التمرة، وهى دعوة إلى تحرى الحلال، والبعد عن الكسب الخبيث ؛ لأن الصدقة تقع فى يد الله أولاً، ومن عرف مقام ربه وتمسك بأمره ونهيه، لا يستطيع أن يضع فى يمينه كسباً خبيثاً ولا يفعل هذا إلا مجترئ على الله.

وقوله – ﷺ " لا يقبل الله إلا الطيب "

جملة اعتراضية (*) جاءت لتقوم بدورها فى أداء المعنى وهو التقرير لما سبق من الترغيب فى الإنفاق من الطيب الحلال، وبيان أنه لا ثواب فى غير الطيب، وفى إقحامها وتوسطها بين المتلازمين ما يشد الانتباه إلى مضمونها ويدل على مزيد عناية بها، والاعتراض وقع كثيراً فى القرآن الكريم وفى كلام العرب، وهو يضفى على المعنى ظلالاً من الحسن، حيث يفصل بين أى جزءين متلازمين من الكلام، والجملة الاعتراضية تفيد الكلام تقوية وتحسيناً (١)

وأثر النفى بـ" **لا** " دون " **ما** " لأن " لا " تفيد النفى على إطلاقه، و" ما " تفيد في الحال.

وفى هذا بيان إلى أن عدم التورع فى الكسب الحلال يؤدى إلى هدم ركن عظيم من أركان الإسلام وهو الزكاة، فالمال إذا داخله الخبث لا تقبل منه زكاة.

(*) الاعتراض باب من الأبواب الدقيقة فى البلاغة العربية يساعد المتكلم أو الأديب فى الإبانة عن مراده ، وفيه من المحاسن لتتمة المعنى المقصود ما ليس فى غيره .
وعرف بأنه الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى لنكته غير دفع الإبهام . انظر شرح عقود الجنان للسيوطى ص ٧٥ ، أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ ٥ ص ١٣٦ ، الإطناب أنواعه وقيمته د / محمود شاكر القطان ص ٥٢ .

(١) انظر مغنى اللبيب لابن هشام ص ٥٠٦ .

والجملة مؤكدة بذاتها بأسلوب القصر طريقة النفى والاستثناء قصر صفة على موصوف، وهو من اقوي أساليب القصر وآكدها للمعانى تقريراً لها، كما نلاحظ المناسبة بين الفاصلتين مع تمكين التقفية والاحتراس (*).

وقوله_ عليه السلام -" **فإن الله يتقبلها بيمينه** "، وفى رواية" أخذها **الرحمن بيمينه** " هذا ذا إكرام ليس بعده إكرام، والجملة مؤكدة بإن و اسمية الجملة، وفى إسناد الأخذ الى إلى الله والتعبير بالماضى للإشارة إلى تحقق وقوع الفعل،كما أن التعبير بالفعل.المضارع "يتقبلها" لاستحضار الصورة تقريرا لها

والأخذ باليمين دليل الإعزاز والتقدير.

والعرب يذكرون اليمين ويقولون تلقاه بيمينه، وجعله فى يمينه، يريدون جعله فى موضع العناية والحفظ، قال الشاعر:

إذا ما رايةً رُفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين(١)

وهذا الحديث وشبهه إنما عبر به على ما اعتادوا فى خطابهم ليفهموا عنه، فكنى عن قبول الصدقة باليمين، وعن تضعيف أجرها بالتربية.

والكناية عن الرضا والقبول بالتلقى باليمين لتثبت المعانى المعقولة فى الأذهان، وتحقيقها فى النفوس تحقيق المحسوسات أى لا يتشكك فى القبول كما لا يتشكك من عاين التلقى للشيء بيمينه، وليس المراد أن التناول كالتناول المعهود، ولا أن المتناول به جارحة (٢).

(*) الاحتراس : أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الايهام ، فقوله : " **لا يقبل الله إلا الطيب** " احتراس أو تكميل حسن جئ به لبيان أنه لا ثواب فى غير الطيب لا أن ثوابه دون هذا الثواب فقد يتوهم من هذا التقييد أنه شرط لهذا الثواب خصوصاً لا لمطلق الثواب فمطلق الثواب يكون بدونه أيضاً فذكر هذه الجملة دفعاً لهذا التوهم .

(١) البيت للشماخ بن ضرار قبله :

رأيت عرابة الآوسى يسمو إلى الخيرات منقطع النظير

إذا مـــا راية رفعت لمجد تلقـاهـا عرابـة بالـيـمـيـن

أى بالقوة، واليمين فى كلام العرب على وجوه يقال لليد اليمنى يمين ، واليمين القوة والقدرة، والبيت شاهدبلاغى على المجاز انظر اسرار البلاغة ص٣٣٢

(٢) فتح البارى جـ ص ٣٥٧ .

وهذا الحديث من المتشابه الذى يوهم ظاهره أن لله عز وجل يميناً تعالى الله عن ذلك

وللعلماء فى مثل هذا مذهبان:

١- مذهب السلف: تفويض معانى المتشابهات إلى الله تعالى وتنزيهه عن ظواهرها المستحيلة فيسلمون بأقوال الرسول كما هى وكما أخبر بها فيقولون: أن لله كفاً ويميناً وعيناً لكن لا تشابه يمين المخلوقات ؛ لأنه منزه عن مشابهة الحوادث.

٢- مذهب الخلف: أداروا هذه الأحاديث إلى طريق التمثيل حملوها على معانيها فى أنها دالة على الجوارحُ لكن ليست على حقيقتها فأخرجوها من دائرة الحقيقة إلى دائرة المجاز بسند معقول من لغة العرب، ووجه مقبول من طرق البيان، فقيل استعير التلقى باليمين للقبول والرضا، لأن الشيء الذى يعز ويرتضى يتلقى باليمين. وقيل المراد بكف الرحمن هنا ويمينه كف الذى تدفع إليه الصدقة وإضافتها إلى الله عز وجل إضافة ملك واختصاص لوضع هذه الصدقة فيها لله عز وجل، والمراد بتربيتها تعظيم أجرها، وتضعيف ثوابها [١].

وقد وقف علماء البيان أمام تلك النصوص المتشابهة، حاولوا معرفة حقيقتها، وإدراك مغزاها المراد واستجلاء مرماها البعيد.[٢]

ولعل السر يكمن فى فهم لغة الحديث، وإدراك الصلة بين حقيقة اللفظ والمجاز، وما ترمى إليه اللغة من ضروب الاتساع، وما تهدف إليه من تصوير مبدع تأكيداً للمعنى وتثبيتاً للغرض المراد من تلك الأساليب، لذا نجد الإمام عبد القاهر ينعى على المتناولين لتفسير هذه المشكلات دون أن تكون لهم دراية ومعرفة

(١) سنن النسائى كتاب الزكاة حديث رقم ٢٥٢٤ .
(٢) دراسات بلاغية فى القرآن الكريم والحديث د/ عبد الفتاح لاشين ص ١٢٢ .

بالبيان فيعيب على من فسر الكف فى هذا الحديث بالسلطان والملك والقدرة أو بالنعمة فيقول:

" ما يُظن بمن نظر فى العربية يوماً أن يتوهم أن (الكف) تكون على هذا الإطلاق، وعلى الانفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة لكنه أراد المثل فأساء العبارة.(١)

وآثر الرسول – ﷺ - أن يذكر الله تعالى باسم الرحمن فى الحديث ؛ لأن هذا الاسم ينسجم مع مضمون الحديث المفعم بالرحمة، وتعددت الروايات للحديث الشريف ولذا تعددت الصور ففى **الرواية الأولى**:

ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل.

والرواية الثانية: " تربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله.

وفى الرواية الثالثة: " يربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحد "

أصل المعنى واحد فى جميع الروايات،وهو ارباء الصدقات وتعظيم اجرها،والتشبيه يشرح كيفية هذه التربية ويبين مدى العناية بهذه الصدقة.

المشبه: تربية الرحمن للصدقة التى هى من مال طيب.

المشبة به: تربية الإنسان (مهره – فلوه – فصيله) معناها متقارب، وجميعها فحاجة الى عناية ورعاية عظيمة،وجه الشبه حسن الرعاية وكمال الاهتمام والعناية والزيادة الواضحة، والغرض من التشبيه الحث على التصدق من المال

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ص٣٣٧ فهو تشبيه عقلى غير حقيقى ص ٣٣٧ .

الطيب، فالصدقة وإن كانت قليلة يأخذها الرحمن بيمينه[١] فما تزال تنمو وتكبر بفضل الله حتى تصير أعظم من الجبل [٢].

وهو تشبيه تمثيلى [*] وجه الشبه مفرد عقلى

وهذا تشبيه واقع إلا أنه نادر، وتأمل العلاقة الحميمة بين الفلو والصدقة من الكسب الطيب، الفلو نتاج الخيل المعقود بنواصيها الخير، وهى خير مال الرجل، والصدقة نتاج الكسب الحلال، وهو أطيب الكسب وأزكاه، ويلفت ابن حجر الأذهان إلى هذه العلاقة بقوله: (الصدقة نتاج العمل وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أُحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم لاسيما الصدقة فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب، لا يزال نظر الله يكسبها نعت الكمال حتى تنتهى بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل)[٣].

---

(١) وفى رواية " لما قيل يمين الله -والحق منزه عن النقص- المفهوم من كلمة شمال قال عليه السلام (وكلتا يديه يمين) عبر بهذه الجملة لانفاء النقص عن الله تعالى لأن الشمال عادة تنقص عن اليمين بطشاً وقوة .

(٢) أثر التشبيه فى تصوير المعنى عبد البارى طه سعيد ص ٣٤ .

(*) اختلف العلماء حول تحديد مفهوم التشبيه التمثيلى :

١- يرى الإمام عبد القاهر أن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه أمراً غير بين بنفسه بل يحتاج إلى تأويل وصرف عن الظاهر ويتحقق فى الوجه العقلى غير الحقيقى مفرداً كان أو مركباً. أسرار البلاغة ص ٨٨ .

٢- يرى الإمام السكاكى أن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً غير حقيقى مفتاح العلوم ص ٣٤٦.

٣- الخطيب القزوينى ذهب إلى أن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه مركباً أى وصفاً منتزعاً من أمرين أو أمور حسياً كان أو عقلياً . الإيضاح جـ ٣ ص ٦٢ .

وعليه فهو تشبيه تمثيلى عند الإمام عبد القاهر . فهو تشبيه عقلى غير حقيقى

(٣) فتح البارى جـ ٣ ص ٣٥٤ ، شرح أحاديث من صحيح البخارى ص ٢٧٩

ولننظر إلى دقة الرسول – ﷺ - فى اختيار الألفاظ الدالة الموحية المعبرة فى اختياره تربية الفلو، لأنه يعنى بتربية الخيل عناية فائقة، والفلو ينمو نمواً واضحاً ويزيد زيادة بينه.

وفى ذلك يقول د / محمد الصباغ

" الحقيقة أن فى التمثيل بتربية المهر لتربية الأجر براعة فائقة ودقة متناهية ؛ لأن المهر يبذل من الجهد فى تربيته مالاً يبذل فى غيره من الحيوان "(١).

والمهر هذا ربما لا يتوفر للناس جميعاً فأتى – ﷺ - له ببديل ففى رواية أخرى قال: فلوه أو فصيله.

والفصيل لا يكاد يخلو منه بيت من بيوت العرب.

أيضاً اختيار التمرة فى المشبه أمر له دلالته الكبيرة فى تصوير الصدقة القليلة، فقد كان الأسودان التمر والماء طعام بيوت رسول الله – ﷺ - لأيام طويلة.

وشبه الجزيرة العربية بلد يكثر فيه التمر، والتعبير عن الصدقة يعدل تمرة يفيد قلة المتصدق به وعظيم الثواب (٢).

فإن انتقال الخيال من رؤية الصدقة وهى تمرة إلى رؤيتها مثل الجبل ليقف الإنسان على عظيم الأجر الذى يكون للمتصدق وهذا يبعث على الصدقة.

هكذا نجد الصورة تعتمد على الحس المباشر الذى يدرك المشاهد متتابعة، وتتجسم أمامه الأشياء تجسماً واضحاً يخلب النفس، ونلاحظ أن التشبيهات الواردة فى جميع الروايات أدت الغرض المقصود منها، وهو الحث على الصدقة من مال طيب مهما كانت قليلة، وقد اعتمدت هذه التشبيهات فى عناصرها ومادتها على ما هو موجود مشاهد فى البيئة العربية من: تمر، خيل، نوق، جبال

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث ص ٩٢ .

(٢) من أدب النبوة جـ ١ ص ٢٠٤ د/ أحمد عمر هاشم .

فوضحت المعانى ورسختها فى الأذهان، بل جعلت الخيال ينتقل من تمرة لا يعتنى بها إلى فلو يعنى بتربيته، ويبذل فيه جهد إلى فصيل، إلى أن يرى الخيال هذه التمرة جعلها الرحمن بفضله وكرمه أعظم من الجبل.

ولعل الجمع بين هذه الأشياء يدخل فيما قاله الإمام عبد القاهر: " هو أن لتصوير الشبه من الشيء فى غير جنسه وشكله، والتقاطه ذلك له من غير محلته واجتلابه إليه من النيق البعيد باباً آخر من الظرف واللطف ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل ".

ثم يقول وإذا إستقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب [١].

هكذا يطلعنا الحديث على أن الله طيب لا يقبل من الصدقات إلا ما كان حلالاً طيباً، ويضاعف عليه الأجر والثواب.

كل هذا باعث على الترغيب فى الصدقة من مال طيب، ولا يعتذر الإنسان بضيق ذات اليد فقد قال – ﷺ - **(اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)** [٢].

(١) أسرار البلاغة ص ١١٦ .
(٢) صحيح البخارى كتاب الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة حديث رقم ١٤١٧ .

الترغيب فى التوبة

عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ –رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ " لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ " (١)

وأخرجه مسلم عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ –رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول " لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة. معه راحلته، عليها طعامه وشرابه،فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه. فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده ".(٢)

---

(١) أخرجه البخارى .كتاب الدعوات باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ ، رياض الصالحين باب التوبة .

(٢) صحيح مسلم كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها رقم ٢٧٤٤ .

اللغة : **دوية مهلكه** : يهلك سالكها وهى الأرض القفر والفلاة الخالية ، تسمى مفازة ، **الراحلة** : البعير القوى على الأسفار والأحمال وهى عند العرب كل بعير نجيب سواء كان ذكرا أو أنثى ، وإنما سُميت راحلة لأنها ترحل .

نام نومة : أغفى إغفاءة دون أن يغط فى نومه .

التوبة : الرجوع عن الذنب ، وقد ورد لفظ التوبة فى القرآن على ثلاثة أوجه : بمعنى التجاوز والعفو وهو مقيد بعلى قال تعالى : (**وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) [التوبة – الأية : ١٥] ، ٢- وبمعنى الرجوع والإنابة وهذا مقيد بـ إلى قال تعالى: (**إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) [الأحقاف ،الأية : ١٥] ، ٣- بمعنى الندامة على الزلة وهذا غير مقيد قال تعالى: (**فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**) [التوبة - الأية: ٣] .

المعنى: لقد كان من فضل الله على عباده أن مُنَ عليهم بالرحمة وأمد لهم بساط الأمل فى قبول التوبة فالإنسان ليس معصوماً من الوقوع فى المعاصى ، وما من أحد إلا فى حاجة إلى التوبة ، فالتوبة أمرها جليل وشانها عظيم ، والحديث يصور فرحه الله بقبول توبة عبده المؤمن بأنها أشد من فرحة رجل نزل بفلاة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فشردت عنه حتى يفقد الأمل فى النجاة وفجأة يراها أمامه فتتملكه الفرحة . من بلاغة النبوة ص ٤٠ .

الصورة البلاغية فى الحديث:

الحديث الشريف يقرر أمر التوبة عند الله عز وجل، والدرجة التى لا يتصورها العبد المذنب، والتى لو عرف قدرها لامتلأ قلبه فرحاً، واشتد أنسه بالله، وإقباله عليه، ورجاؤه فيه، تيئيساً للشيطان وقهراً لوسوسته، واستدراجه المؤمن بالذنب تلو الآخر حتى لا يجد المؤمن لنفسه فرجة أمل فى القبول عند الله.

والحديث الشريف يطرد شبح اليأس عن التائبين، فالمؤمن لا يعرف اليأس.

والحديث صورة رائعة تقرر رحمة الله وحبه لعباده، وفرحه الشديد بتوبة عبده حين يتوب إليه، يصورها فى لوحة تصويرية صيغت على شكل أقصوصة موجزة ترسم فجيعة إنسان وحيد يعتسف الصحراء فى أعز شيء لديه فى حياته التى يوشك أن تفنى بعد فقد الطعام والشراب والناقة، وفى أى مكان ؟ فى مهلكه ترمى بالرعب والحِمام، إن العطش التهب أحشائه فى الداخل، وقد جلده الحر بأقصى سياط فى الخارج، حتى إذا استيئس ترقب نهايته المظلمة، وأطبق عينيه ليحلم بالخاتمة الحزينة، ولكنه يستيقظ ليرى الراحلة بما حملت أمامه، يا لها من فرحة لا تعادلها فرحة فى الحياة، إنها فرحة الغريق بطوق النجاة، وهى فى الحديث تقل عن فرحة الله بتوبة عبده[1]. لأن فرح الله بتوبة عبده يفوق فرح هذا الرجل براحلته.

هذا الحديث من المتشابه الذى يحمل على التأويل وللعلماء فيه مذهبان مذهب السلف: يرون فى مثل هذه الأحاديث الحمل على الظاهر من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل وعلى هذا يكون المراد تشبيه فرح الله بتوبة عبده برجل نزل بصحراء معه راحلته عليها طعامه وشرابه فتشرد عنه حتى يستبد به الجوع ويفقد الأمل فى النجاة ثم فجأة يراها أمامه فتتملكه الفرحة.

ووجه الشبه الفرحة بالنجاة بعد الهلاك المحقق يكون مركباً عقلياً حقيقياً لأنه متحقق فى الطرفين.

(١) البيان النبوى . د/ محمد رجب البيومى ص ١٨٦

مذهب الخلف: أداروا مثل هذه الأحاديث إلى التمثيل، وأخرجوها من دائرة الحقيقة إلى دائرة المجاز، فقالوا إن الفرح الذى هو من صفات المخلوقين محال على الله ؛ لأنه اهتزاز وطرب يحده الشخص من نفسه عند غرض يستكمل به نقصانه، وهذا محال على الله لأنه الكامل بذاته لا يلحقه نقص ولا قصور، وهذا الوجه متحقق والمشبه به دون المشبه فوجب أعمال الفكر لإيجاد وجه شبه حقيقى فى الطرفين على السواء فيقال إن إطلاق الفرح فى حق الله مجاز عن رضاه والمراد أن الله يرضى بتوبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة ووجه الشبه متحقق فى الطرفين وهو الرضا التام المترتب على عوده شيء وقد ضل طريقه

وقد استهل رسول الله - ﷺ - كلامه بأداة من أدوات التقرير والتأكيد التى يسرع بها المتكلم لتأكيد كلامه، وهى لام الابتداء الداخلة على المبتدأ " لله " تأكيد المعنى تقبل الله توبة عبده باللام والجملة الاسمية وأفعل التفضيل، وللتأكيد أثره فى نفس السامع.

وقوله: " لله " مسند إليه مسبوق بلام الابتداء تعجيلاً لالتفات السامع وإسراعاً باهتمامه للترغيب فى التوبة إلى الله.

أفرح: أفعل التفضيل مسندا زيادة فى قسر السامع على الانتباه.

بتوبة عبده: الباء للسببية أى بسبب توبة عبده، الإضافة فيها تعظيم لشأن العبد المؤمن بأنه عبد لله، ووصف العبد بالمؤمن لأن الإيمان مناسب للتوبة، وقد أمر الله المؤمنين جميعاً بالتوبة فى قوله " **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**"[1]

لأن أوامر الله و نواهيه لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد ولا يخلوا من تقصير يقع منه، ولذلك أوصى الله عز وجل المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا.

وفى ذكر المفضل عليه إعلاء لشأن المفضل السابق " **لله** "[2]

(١) سورة النور ، آية ٣١ .
(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية بتصرف ص ١١١

هكذا نجد الخبر كله يقرر الأثر البالغ فى النفوس، والمراد أن الله يرضى بتوبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة. فإطلاق الفرح على الله مجاز مرسل علاقته اللزومية، لأن الفرح والرضى متلازمان فعبر بالفرح عن الرضى تأكيداً لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره [1].

والتعبير باسم المرة فى قوله: نام نومة يدل على أن الغفلة عن التوبة وعدم تجديدها ولو مرة واحدة مما ينبغى على الإنسان مراعاته وتجنبه فربما أصابته بما يدخل الحسرة فى قلبه، والندم على نفسه .

فيجب على الإنسان دائماً أن يجدد توبته فيكون تواباً والله يحب التوابين، وأن الاستسلام للخالق وترك الأمر كله بين يديه لابد أن يفرج الهم ويزيل الكرب، فإن هذا العبد لما أيس من وجود راحلته استسلم للموت فَمَنْ الله عليه برد ضالته.

والبيان النبوى لا يصور فرحة التائب المقبول بالنجاة التى يحق لها أن تطول فرحته وتعمق ؛ إنما يصور فرحة الله الذى لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة من العبد فى تلك الصورة التمثيلية الرائعة إن هذا الفرح الشديد مظهر من مظاهر رحمة الله لعباده، ورأفته بهم فهو يفرح بتوبة عبده الذى ينقذ نفسه بهذه التوبة من النار.

والحديث فى مجمله تمثيل أتى به لتقريب المعنى إلى ذهن السامع، وقد جاء على الأصل حيث شبه ما يجهله المخاطب بأوضح وأقرب معنى إلى ذهن السامع وهو الراحلة والزاد والفلاة، فضرب المثل بما يصل إلى الأفهام من الأمور المحسوسة.

فشبه فرحة الله بتوبة عبده ورجوعه إليه بعد أن اقترف العديد من المعاصى وتحقق من الهلاك ويئس من النجاة، بفرحة رجل نزل بصحراء معه راحلته عليها طعامه وشرابه فتشرد عنه حتى يستبد به الجوع فيفقد الأمل فى النجاة، ثم فجأة يرى راحلته أمامه، فتتملكه الفرحة، وتأخذه النشوة ؛ لأن أمله فى الحياة قد تجدد.

(١) عمدة القارئ جـ ٢٢ ص ٢٨١ ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٧ ص ٦٠ .

وهو تشبيه تمثيلى[*] وجه الشبه منتزع من عدة أمور امتزجت والتأمت حتى صارت كالشيء الواحد، وهو الفرحة بالنجاة بعد الهلاك المحقق.

ولا يخفى ما للتمثيل من أثر فى النفس، وقد بلغ هذا التمثيل منزلة كبيرة من التأثير فى نفوس العرب أبناء الصحراء وأصحاب الإبل، ومكن هذا المعنى المجرد عندهم ؛ لأنهم يعيشون فى هذه الأوساط وربما تعرض بعضهم لمثل هذه الأزمات أو سمعوا بنبأ من تعرض لها [1]. وهكذا يتبين لنا أن التصوير بالقصة من أجمل أساليب التصوير وأعمقها أثراً فى النفس.

والمتأمل فى الحديث الشريف يلاحظ ما فيه من سمات بلاغية منها:

أن ألفاظ الحديث قد اختيرت بدقة متناهية يقوم كل منها بدوره فى تأكيد المعنى وتصوير الأحداث والإيحاء بنتائجها، بل وتحديد الزمن الذى استغرقه حدوثها فنجد وصف الصحراء الذى يجتازها الرجل بلفظ " دوية مهلكة " مما يؤكد المخاطر التى وجد الرجل فيها نفسه بعد أن فقد راحلته، فالدوية هى الأرض المقفرة التى لا توجد بها أسباب الحياة، والمهلكة بفتح اللام التى يهلك فيها من يجتازها كما أنها بضم الميم وكسر اللام " مُهلِكة " تعنى التى تُهلك من يجتازها، وتلك المعانى توحى بما أحاط الرجل من أسباب الهلاك المؤكد ليكون ذلك ممهداً للمبالغة فى فرحة الرجل بنجاته من كل هذه الأهوال.

(*) والتمثيل له أثره فى النفس فى ذلك يقول الإمام عبد القاهر : " يضخم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف ويكمل ؛ لأن أُنس النفوس موقوف على أن نخرجها من خفى إلى جلى وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هى بشأنه أعلم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام . أسرار البلاغة ص ١٠٨

(١) التصوير الفنى فى الحديث بتصرف ص ٩١ .

كما أن ما تضمنه الحديث من أفعال تصور حركته وتوحى بحالته النفسية فى قوله –عليه السلام- عن الرجل " فنام، فاستيقظ "، وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع فأنام حتى أموت ".

هذه الأفعال وما دخل عليها من حروف العطف تصور حركة الرجل وتوحى بحالته النفسية فكأننا نرى الرجل وسط هذه الصحراء المهلكة وقد شعر بحاجته إلى الراحة فيغلبه النوم فينام، وبهذه السرعة تشير الفاء التى تفيد السرعة وعدم التراخى، ويستيقظ الرجل سريعاً من نومه وإلى هذا تشير الفاء "فاستيقظ" فلا يجد الرجل راحلته فيسرع إلى طلبها العطف بالفاء يشير إلى اندفاع الرجل فى بحثه عنها،ويطول زمن بحثه عنها حتى يدركه العطش، ويبأس من إدراكها ويعبر عن ذلك بثم " ثم قال " مما يدل على أن طلب الرجل لراحلته استغرق منه وقتاً غير قصير وجهداً كبيرا، فالرجل لم يفكر فى انتظار الموت إلا بعد أن يئس تماماً من العثور على راحلته وهكذا تتضافر الأفعال وأدوات العطف فى تشكيل مشاهد الصورة وتحديد زمن كل مشهد كما تكشف عما كان يعتمل فى نفس الرجل من مشاعر نفسية وهو يتقلب بين هذه الأحداث ثم تأتى خاتمة الحديث لتؤكد رضا الله بتوبة عبده المؤمن، والتأكيد على معنى التفضيل الذى أشار إليه فى صدر الحديث[1].

(١) انظر لمحات من هدى النبى – ﷺ - بتصرف ص ١٩٤ .

الترغيب فى الصلاة

عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله - ﷺ - قال: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟" قالوا: بلى. يا رسول الله! قال "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط " (١) .

الصور البلاغية فى الحديث:

" ألا ": كثر استعمال هذا الحرف فى البيان النبوى للإشارة إلى الاهتمام بمضمون الجمل التى يدخل عليها، وقد استهل الرسول - ﷺ - كلامه بحرف التنبيه " ألا " المركب من أداة الاستفهام الداخلة على حرف النفى " لا "
ليثير بسؤاله انتباه المخاطبين وتشويقهم لمعرفة المسئول عنه، لأن " ألا " هنا مختصة بالفعل فهى للعرض وهو استحضار نفس المخاطب وعقله بهذه الجملة التى تحمل سؤالاً مشوقاً إلى ما يكون من الجواب.، هيأ وشوق بالاستفهام إلى ذلك الذى يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات، لقد تشوقوا لمعرفته وتطلعوا إلى

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى جـ ٣ ص ١٤١ كتاب الطهارة باب فضل إسباغ الوضوء ، سنن الترمذى جـ ١
ص ٥٥ ، ٥٦ .

اللغة : إسباغ الوضوء : إكماله وإتمامه واستيعاب أعضاءه بالماء .

المكاره : جمع مكرهة بمعنى الكره والمشقة ، وهى شدة البرد وكل حال يُكره فيها المرء نفسه على الوضوء .

الرباط : ملازمة المسجد لانتظار الصلاة ، أو المواظبة على الصلاة وحبس النفس على الطاعة .

المعنى : يعرض الرسول – ﷺ - على أمته ممثلة فى أصحابه معرفة أمور تمحو الخطايا وترفع الدرجات ليستثير كوامن شوقهم ويبعث عظيم اهتمامهم وهم أشد الناس خوفاً من صغير الذنب فضلاً عن كبيره وأعظمهم حرصاً على الصعود فى معارج الجنات فيبين لهم أنها أمور ثلاثة يعتقد أنها يسيرة وهى يسيرة على من يسره الله للفلاح وهى إسباغ الوضوء على المكاره كالبرد الشديد وغلاء الماء وندرته وألم الجسم وكثرة الخطا إلى المساجد وتكون بكثرة التكرار وببعد الدار ، والمكث فى المساجد لانتظار الصلاة

الوقوف عليه، وعندئذ جاءهم بما تشوقوا إليه " إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة " إنها معان جليلة ومن أجل ذلك هيئوا وشوقوا لمعرفتها لتثبت فى وجدانهم ويشتد حرصهم على تحصيلها.(١)

ولا شك أن السياق على هذا الترتيب من عرض السؤال مفتتحاً ب" ألا" ثُم صمت النبى - ﷺ - قليلاً ليستطلع هذا الانتباه فى التفاتهم وجوابهم إشارة إلى أن ما يلقى من الأمور الخطيرة حتى إذا جاء الجواب استقر فى نفوسهم، وتمكن خير تمكن.

" مـا " اسم موصول بمعنى الذى يفيد الابهام:،و عرف المسند إليه بالموصولية للتفخيم والتعظيم.

" يمحوا الله به الخطايا ويرفع الدرجات "

مغفرة الذنوب عبر عنها فى الحديث بمحو الخطايا، والقبول والارتقاء فى المنزلة يعبر عنها برفع الدرجات، فصور المعنوى فى صورة محسوسة، وإيقاع فعل المحو على الخطايا يبرز الخطايا فى صورة ماديه وينقلها من المعنويات المجردة إلى الماديات المحسوسة تقريباً للإدراك حيث شبه الخطايا بشيء مادى محسوس ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو المحو على سبيل الاستعارة المكنية، كما أن إيقاع فعل محو الخطايا من الله سبحانه وتعالى يشد انتباه من يتلقى الحديث أن العبادة لا تحدث أثرها بذاتها، إنما تحدثه بقبول الله حق مؤديها، إذ ليس بالذهاب إلى المساجد وانتظار الصلاة تمحى الذنوب، وترفع الدرجات، لكنه بحاجة إلى أن يفوض أمره كله إلى الله، لأن قبول العبادة منه وحده وتحقيق أثرها منه وحده، لذلك أسند محو الخطايا، ورفع الدرجات إلى الله عز وجل.

---

(١) التشويق فى الحديث النبوى ص ١٦ .

المقصود بمحو الخطايا محو آثارها أو محو دواعيها وهذا ما تؤكده الآية الكريمة **"إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ "**

فالصلاة تمحو دواعى الخطيئة وتنظف نفس المصلى من كل ما يدفعه إلى ارتكاب الإثم [1].

وجاء بلفظ الخطايا جمع لا مفرد بصيغة منتهى الجموع ليدل على مقدار فاعلية الصلوات الخمس فهى تمحو الآثام والخطايا التى تغمر المسلم.

وفى التعبير بالفعل المضارع (يمحو – يرفع) دلالة على استحضار الصورة، وتجددها كل وقت وحين فيصيح الجميع منتبهين: بلى يا رسول الله.

باستخدام أداة النداء الموضوعة للبعيد مع القريب تنزيلاً لبعد المكانة وعظم المنزلة منزل بعد المكان.

ثم يبين لهم النبى – ﷺ - هذه الأمور بقوله: " **إسباغ الوضوء على المكاره** "، لفظ " إسباغ " فيه دلالة على الاستيعاب حيث تدور مادة الإسباغ حول الكمال والاتساع والطول، إسباغ الوضوء المبالغة فيه وإتمامه،وأسبغ الله عليه النعمة أكملها وأتمها ووسعها. " فلان فى سبغة من العيش " أى فى سعة، وفى التعبير بالجملة الاسمية دلالة على دوام ذلك واستمراره من دوام واستمر على إسباغ الوضوء كان ذلك ماحياً لخطاياه، وفى الكلام إيجاز بالحذف والمراد إسباغ الوضوء على أعضاء الجسد على الرغم من كراهية النفس له لشدة البرد أو غلاء الماء أو كل حالة يكره الإنسان فيها نفسه، والوضوء يتكرر بتكرار الصلوات، وقيده بقوله " على المكاره " وهو قيد مهم يبرز مدى الرغبة فى الثواب والطاعة الخالصة، أى القيام بهذاالعمل رغم ثقله على النفس وكراهيتها له،ورغم ما يصيبه من مشقة وذلك رغبة فى طاعة الله عز وجل، والحرف **"على"** يفيد الاستعلاء،وقد نقل من الاستعلاء الحسى إلى الاستعلاء المعنوى، حيث شبه الاستعلاء المعنوى وهو القيام بهذا العمل رغم ثقله على النفس

(١) تأملات فى البيان النبوى د/ إبراهيم عوضين ص ٣٢ .

بالاستعلاء الحسى للمكان،فشبه المسلم فى إسباغه الوضوء على جميع أعضائه واستعلائه على جميع ما تكرهه النفس فى ذلك باستعلاء الراكب على دابته بجامع التمكن، ثم استعير له الحرف "على" الموضوع للاستعلاء الحسى كقوله تعالى: " **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** "(١)، شبه تمكن الجذع من المصلوب باستقرار المظروف فى الظرف بجامع الثبات واستعير الحرف" فى " الموضوع للظرفية الحقيقية الى الظرفية المجازية، وعبر بذلك، لأن عادة النفس الكسل عن الطاعة والفتور عن الصلاة لإلقاء الشيطان فى أمنية الإنسان عفو الله وصفحه، فإسباغ الوضوء قمع للشيطان يحتاج إلى العزيمة والحزم.

" وكثرة الخطا إلى المساجد"

دحر لوسوسة أن يخاف المؤمن الحر والبرد ويتعلل بالضيف أو الضعف، فيفوته إما آداء الصلاة وإما فضل الجماعة وأجر الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة قهر للمعصية ونهى عن الفحشاء والمنكر اللذين هما حظ الشيطان.

وإيثار لفظة " انتظار " تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر، ولا يترقب وينتظر إلا المهم العظيم (٢).

ولمزيد من الترغيب فى هذه المعانى يختم الحديث بقوله – ﷺ - "فذلكم الرباط" قاصرا الرباط عليها ومكررها ثلاثا ،للاهتمام به و تعظيما لشانه والتكرار سنة بيانية من سنن العرب فيرشدهم – ﷺ - مؤكداً ومقرراً إلى فضل هذه الأعمال وكأنه يقول لهم: إذا عرفتم ذلك فذلكم هو الرباط.

ورباط الخيل كناية عن عسكرة الجيش استعداداً للمفاجأة بالغزو أو الدفاع، وانتظار الصلاة بعد الصلاة هذا الانتظار شبهه رسول الله – ﷺ - بالرباط من

(١) سورة طه آية ٧١ .

(٢) كشف الخفاء ومزيل الالباس للعجلونى ص ٤٢٤ ، ضروب التوكيد اللفظية فى أحاديث الترغيب والترهيب ص ٨٦ ، بحث فى مجلة كلية اللغة العربية .

ناحية عظم الأجر، تشبيهاً بليغاً[*]، فإن أجر المرابط الذى يرابط فى الثغور ينتظر التصدى للأعداء وردهم عن بلاد المسلمين أجر عظيم، وكذلك شأن انتظار الصلاة فى المسجد بعد الصلاة [1].

ومن الملاحظ اشتراك طرفى الصورة (انتظار الصلاة، والرباط) بالانتظار وهو انتظار التصدى للعدو.

ما أدق التمثيل فى البيان الكريم وما أدق النسق " إن " اسم إشارة، " ذلكم " يدل على التفخيم، وزيادة الميم زيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصاص الإشارة به إليهم، ثم وقوعه مسنداً إليه، والمسند معرف باللام (الرباط) يفيد قصره [*] عليه، وكأنه يقول: لا رباط إلا ذلكم المشار إليه لكمال المعنى فيه ولئلا تتوهم المجازفة فى الإخبار عنه بهذا الخبر مع ما للجهاد المسلح من فضل ظاهر، قطع تكرار العبارة كل وهم وأكد ذلك المعنى تأكيداً لا مساغ للشك بعده [2].

(*) التشبيه البليغ : قيل إن التشبيه البليغ هو التشبيه المحذوف الوجه والأداة للمبالغة حتى يخيل أن المشبه هو المشبه به على الحقيقة .

والأولى أن يقال : كل تشبيه ناسب المقام وأدى الغرض المطلوب منه مع ارتقائه عن التشبيهات العامية فهو التشبيه البليغ سواء ذكرت كل أطرافه أو حذف بعضها لأن قصر التشبيه البليغ على محذوف الوجه والأداة يؤدى إلى جعل كثير من تشبيهات القرآن الكريم خارجه عن هذا الحد وهذا أمر لا يتصوره عاقل فقد بلغت تلك التشبيهات الذروة من البلاغة والإعجاز ، وناسب كل منها مقامه وفى ذلك يقول الشيخ الدسوقى مبيناً مفهوم التشبيه البليغ .

الحاصل أن بلاغة التشبيه منظور فيها إلى كونه بعيداً غريباً سواء كان وجه الشبه فيه تركيب من أمور كثيرة أولاً وسواء ذكرت الأداة أو حذفت ، لذا فإطلاق البليغ على التشبيه الذى حذفت أدائه إطلاقاً شائعاً طريقة لبعضهم . انظر حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ٣ ص ٤٥٧ ، انظر محاضرات فى البيان د / فريد النكلاوى ص ٨٤ .

(١) التصوير الفنى فى الحديث ص ٢٩٦ .

(*) هذا على سبيل القسر الادعائى للمبالغة قصر موصوف على صفة إذ الرباط يكون فى غير ذلك ولكن لكمال المعنى فيه نزل غيره منزلة العدم على سبيل الادعاء والمبالغة .

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٩٣ .

وبالنظر فيما دل عليه رسول الله – ﷺ - وحث عليه من إحسان الوضوء، وكثرة الذهاب إلى المساجد، وانتظار الصلاة فيها، ورباط الجند للجهاد فى سبيل الله تتجلى فصاحة النبى – ﷺ - وبلاغته وحسن ربطه بين المعانى.

حيث إن رباط الجيش فرض كفاية، والصلاة بأوقاتها فرض عين، ورباط الجيش فترة لها غاية، ورباط المؤمن للصلاة مدّ الأجل، إن رباط الجيش لحرب عدو ظاهر وهو الإنسان أخو المحارب فى الجنس، وعساه أن يُسلم أو يستكين، ورباط المؤمن للصلاة لحرب عدو غير ظاهر، يرانا ولا نراه هو الشيطان الرجيم، الذى أخرج الإنسان من الجنة فدلاهما بغرور، وأقسم لأضلنهم أجمعين، وجاهر الله متواعداً بقوله " ولا تجد أكثرهم شاكرين "، ثم إن رباط الجيش عبادة فعلية ورباط المؤمن لصلاة عبادة فعلية أيضاً وصلة قلبية، وذكر وقرآن وتنفرد ولا ينفرد عنها رباط الجيش، فهى آكد فى مفهوم العبادة [1].

ذلكم هو الرباط، فلم يعتد النبى – ﷺ - بالرباط الحقيقى وهو الجهاد فى سبيل الله، بل جعل القيام بهذه الاعمال هو الرباط لما فيها من عظم الأجر بقهر النفس الأمارة بالسوء، وقمع شهواتها فهى تسد طرق الشيطان والهوى عن النفس، وتمنعها من قبول الوساوس والشهوات، فكانت هى الجهاد والرباط، ولا يعتد بالجهاد والرباط الحقيقيين بالنسبة لهذه الأعمال.وهو ما يفسر قوله – ﷺ - وهو فى طريقه راجعاً من إحدى الغزوات " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " يريد جهاد النفس بفعل الطاعات وترك المنكرات.

إن الذى يعد نفسه بمثل هذه الأمور هو القادر على الرباط المسلح وعليه فليتعلم المرابطون هذا النوع العظيم من الجهاد ليحرزوا النصر ويفوزوا بالفلاح.

(١) ينظر نزهة المتقين شرح رياض الصالحين جـ ٢ ص ٣٧ .

الترغيب فى التقوى والسمع والطاعة

عن الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ –رضى الله عنه- يَقُولُ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ فقلنا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ فَاعْهَدْ إِلَيْنَا بِعَهْدٍ فَقَالَ « عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِى اخْتِلاَفًا شَدِيدًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ من بعدى عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ ومحدثات الأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كل محدثة بدعة وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ ».(١)

الصور البلاغية فى الحديث:

الحديث الشريف حفل بالعديد من الصور الفنية التى تجسد المعنى فى صورة مادية محسوسة فتبدو وكأنها ماثلة شاخصة أمام عين الرائى، وهذا بلا شك يؤدى إلى وضوح المعنى فى الذهن، وتأكيده فى النفس.

وفى قول راوى الحديث دليل واضح على مدى تأثير البيان النبوى فى المخاطبين ففى وصف الموعظة بأنها بليغة اى بلغت الينا واثرت فى نفوسنا،

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٠ ، سنن بن ماجه حديث رقم ٤٢ ، سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٤ ، رياض الصالحين ١٥٢ .

اللغة : وجلت : الوجل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطرب فى القلب والمعنى خافت واضطربت وارتعدت .

السمع والطاعة : أى للحكام والأمراء وذلك فيما هو فى طاعة الله .

محدثات الأمور : ما لم يكن معروفاً فى كتاب ولا سنة ولا إجماع .

البدعة : العمل الذى لا دليل عليه أو الطريقة المخترعة فى الدين تضاهى الطريقة الشرعية .

المعنى : اعتاد النبى – ﷺ - إذا صلى بالناس صلاة جماعة أن يعظهم ويذكرهم ، وهذه الموعظة وصفها الراوى بأنها موعظة هامة لما لها من تأثير فى نفوسهم حيث وجلت منها القلوب وزرفت منها العيون ولما رأى الصحابة أن النبى – ﷺ - قد أكد النصيحة وشدد التحذير فيها أحسوا أنها موعظة مودع راحل عن الحياة فرغبوا فى الاستزادة من التوجيه والإرشاد فطلبوا أن يوصيهم وصية فأوصاهم بتقوى الله والسمع والطاعة وهى وصية جامعة لأمر الدين والدنيا ، ثم يخبرهم بما يؤول إليه أمرهم من الاختلاف فأوصاهم بالتمسك بالسنة ، وحذرهم من الوقوع فى البدع والضلالات .

وفى قوله: وجلت منها القلوب، وزرفت منها العيون مبالغة فى شدة التأثير، وكأن القلوب فزعت وانتقلت من مكانها وفى هذه كناية عن قوة الموعظة وشدة تأثيرها، ظاهراً وباطناً ووصولها إلى غايتها، لأن القلوب لا تفزع ولا تسكب الدموع إلا بما هى متأثرة به، وهذا راجع لبلاغته – ﷺ - وقوة تأثيره كما يدل على نجاحه فى مهمة التبليغ أعظم النجاح، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سبيل الدعاة والمصلحين، والأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وفيه دليل أيضاً على حسن استقبال الصحابة لما يوجههم وينصحهم به، وكريم استعدادهم لتلقى الموعظة وتقبلها.

عبر بقوله "وجلت" ولم يقل: خافت لأن الوجل خوف وزيادة وهو الخوف الذى معه اضطراب وتردد فى هذا الأمر بمعنى انه خاف منه مع كون القلب راغباً فى هذا الأمر.[1]

زرفت: أى سالت وفى إسنادها إلى العيون مع أن السائل دموعها مبالغة فهو مجاز عقلى علاقته المكانية ؛ لأنه العيون لا تزرف وإنما يزرف منها الدموع، وهى مكان ومقر لها، وعبر بذلك للمبالغة فى كثرة الدموع وغزارتها حتى خيل للسامع أن التى تسكب هى العيون بذاتها ليست الدموع الخارجة منها كأنه مقام تخويف ووعيد.

يا رسول الله:

ولنتأمل أدب الصحابة فى الطلب حيث يقدمون له بالنداء تأدباً وتلطفاً وإظهاراً للعناية، ثم النداء بالياء المؤذنة للبعد بين مكانة السائل والمسئول، ثم دعاؤه بالرسالة، وفى هذه إعظام له – ﷺ - وبيان لمحله من ربه، وإشعار بعلو مكانته، ورفعة شأنه، وبعد منزلته، كما أن المطلوب من الأمور الهامة.

وفى قوله: " وعظتنا موعظة مودع " " تشبيه بليغ " حيث شبهت موعظة الرسول – ﷺ - لما فيها من تأكيد النصيحة وتشديد التحذير بموعظة المودع

(١) شرح الأربعين النووية للإمام النووى ص ٣١١ .

الراحل عن الحياة، وجه الشبه: الإحاطة وقوة التأثير ورغبة السامعين فى الاستزادة من التوجيه والإرشاد.

قوله – ﷺ - **" عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة "**

أسلوب إغراء[1] أفاد تزيين وتشويق وشحذ للعزائم واستنهاض للهمم، وإلزام بالشيء المغرى به واغتنام ما فيه خير وإصلاح، وهو أقوى من أسلوب الأمر بصيغة **"افعل"**، وفى هذا التعبير بيان رحمته – ﷺ - بأصحابه وحرصه عليهم، ورغبته فى تحصيل الخير لهم، أى إلزموا تقوى الله، والسمع والطاعة وإن ولى عليكم عبداً حبشياً.

أى وإن تأمر عليكم أمير ترونه دونكم فالعبد فى عرفهم وفى عرف الشرع لا يستوى مع الحر، وكذلك العربى القرشى لا يستوى مع الحبشى لا سيما فى موضوع الخلافة.

" وإن عبداً حبشياً "

"عبد " نكرة والنكرة فى سياق الشرط تدل على العموم وتنكير **"عبد"** يدل على أن طاعة هذا العبد واجبة أيا كان وضعه ومهما كانت منزلته وصفته.

والمراد: وإن تأمر عليكم عبداً حبشياً ترونه دونكم فعليكم بتقوى الله والسمع والطاعة، فحذف جواب الشرط لدلالة الكلام قبله عليه.

وعبر بـ **"إن"** دون **"إذا"**

للدلالة أن طاعة الأمير فى هذه الحالة من الأمور التى تستثقلها النفس وتنزع إلى مخالفتها، فجئ بـ **"إن"** التى تدل على عدم القطع أو قله ذلك، ومع هذا فطاعته واجبة.

وقال بعض العلماء: العبد لا يكون والياً، ولكن ضرب به المثل على التقدير وإن لم يكن فهو كقوله " من بنى لله مسجداً كمفحص قطاه بنى الله له بيتاً فى الجنة " ومفحص قطاه لا يكون مسجداً فقيل ذلك على التمثيل،وقد مثل – ﷺ -بادنى افتراض ليكون ما سواه اولى بلاغة بالحكم

(١) الاغراء هو وإلزام المخاطب العكوف على ما يحمد العكوف عليه من مواصلة ذوى القربوالمحلفظة على عهود المعاهدين ،ونحو ذلك انظر شرح الكافية الشافيةج٢ص٤١

وقيل يحتمل أن النبى – ﷺ - أخبر بفساد الأمر ووضعه فى غير أهله حتى توضع الولاية فى العبيد، فإذا كانت فاسمعوا وأطيعوا تغلباً لأحد الضررين وهو الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته لئلا يفضى إلى فتنة عظيمة[1].

ولم يكتف بقوله: "عبداً" إنما قيده بهذه النسبة " حبشياً " ليؤكد سواده ؛ لأن العبد قد يرد لونه على غير السواد.

فأمرنا – ﷺ - بطاعة هذا العبد وتنفيذ أحكامه وعدم شق عصا الطاعة، وإن كان بهذه الدرجة من السواد.

ثم كرر – ﷺ - أسلوب الإغراء جئ به ليثبت المعنى فى النفوس،ويقره فى الأفئدة ليكون حقيقية ثابته.

"فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى "

الفاء هنا تنبئ عن السرعة فهى تدل على التعقيب والوصل السريع والمبادرة أى بادروا واحرصوا على التمسك بسنتى، والإضافة أفادت تعظيم السنة بأنها سنة النبى – ﷺ -، كما عطف سنة الخلفاء الراشدين من بعده للاشتراك فى هذا الحكم والالتزام به.

ووصفهم بالراشدين لأنهم قاموا بالرشد، والرشد هو العلم بالحق والعمل به،وسموا راشدين لأنهم علماء فى الحق وعلموا به وهذه صفة خاصة بالخلفاء الراشدين الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان،وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعاً، كما وصفهم بالمهديين أى الذين مَنْ الله عليهم فهداهم للحق وعملوا به.

" عضوا عليها بالنواجذ "

أى عضوا عليها بجميع الفم احترازاً من النهش، وهو الأخذ بأطراف الأسنان.

والعبارة الشريفة تحمل على الكناية. وهى كناية عن صفة شدة الحرص على السنة والتمسك بها والجد فى لزومها، لأن العض بالنواجذ يلزم منه العض بجميع الأسنان، كما يمكن حملها على الاستعارة التمثيلية.

(١) شرح الأربعين النووية للإمام النووى ص ٣٠٦ .

والمراد اجتهدوا فى إتباع السنة، واحرصوا عليها واستمسكوا بها، فقد شبه الاجتهاد فى إتباع السنة، والتمسك بها والحرص عليها كفعل من أمسك بنواجذه شيئاً وعض عليها لئلا ينزع منه خوفاً من ذهابه وتفلته، وحذف المشبه واستعير له المشبه به، على سبيل الاستعارة التمثيلية المشبه معقول والمشبه به محسوس، وآثر – ﷺ - التعبير بالنواجذ ؛ لقوتها وشدتها فإذا عضت شيئاً نشبت فيه فلا يتخلص منها – وفى هذا التعبير صورة فنية جميلة فالشيء الذى يحرص عليه المرء يعضه بأسنانه، والمبالغة جاءت فى الحديث من أن العض على السنة ينبغى أن يكون بالنواجذ لا بغيرها، وهكذا نجد الحديث الشريف جسد المعنوى فى صورة مادية محسوسة ملموسة فبدت كأنها ماثلة أمام عين الرائى، وهذا بلا شك يؤدى إلى وضوح المعنى وتأكيده فى الذهن، فضلاً عما يحدثه ذلك من تأثير يتداعى إلى القلوب والعقول حيث ينفعل معها قلب وعقل القارئ والسامع وذلك أدعى لتقبل النفس لها وإقتناع العقل بها واستقرارها فى الأذهان.

والرسول – ﷺ - كما رغب فى التمسك بالسنة حذر ورهب من إتباع البدع والضلالات، فلما حث أمته على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين هذه هى السنة الكاملة استشعر كثرة الفتن والمحدثات والضلالات التى ستطرأ من بعده، والتى توهن التمسك بالسنة، وتزعزع الناس عنها فقال محذراً:

" وإياكم ومحدثات الأمور "

أتى بأسلوب التحذير[1] بعد التوكيد والتقرير بالالتزام بالسنة مع أن الأمر بشيء يستلزم النهى عن ضده، لكن لما كان التوجيه بالسنة أمر فى غاية الأهمية اتبعه بالتحذير مبالغة فى التمسك بالسنة والبعد عن أهل البدع والضلالة، ووصل بين الجملتين للتوسط بين الكماليين (كمال الانقطاع وكمال الاتصال) حيث اتفقتا فى الإنشائية مع وجود الجامع وهو التضاد بين الأعزاء والتحذير.

(١) أسلوب التحذير: إلزام المخاطب الاحتراز من مكروه ب" إياك" مجراه أو ما جرى مجراه كقولك: إياك والشر انظر شرح الكافية الشافية لابن مالك ج٢ص٤٠

وقوله "و كل بدعة ضلالة "

أى ما من بدعة فى الدين إلا وهى ضلالة،وعطفت جملة " كل بدعة ضلالة " على جملة " كل محدثة بدعة " للتوسط بين الكماليين لاتفاق الجملتين فى الخبرية لفظاً ومعنى ولا مانع من الوصل. والبدعة: هى الطريقة المخترعة فى الدين، وهى ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا فى الذم(١). والضلالة الخروج عن السنة ضد الهدى والرشاد .

والبدعة التى تكون ضلالة هى المذمومة التى يراد بها إحداث شيء فى الدين ليس منه.(٢)

وقد قال – ﷺ - « **مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** »(٣)

وسر إضافة النكرة " محدثة وبدعة " إلى كل لإفادة العموم.

"والمحدثات" جمع محدثة وهى كل ما أُحدث بعده عليه الصلاة والسلام على غير مثال سابق فهو أمر غير معروف فى كتاب ولا سنة ولا إجماع، والمنهى عنه هنا الضلالات من البدع فهو تحذير ونهى.

كما أوصى الرسول – ﷺ - جماعة المسلمين بالخليفة فقد أوصى الخليفة(*) بجماعة المسلمين.

عن أبى أمامة –رضى الله عنه- قال: قال رسول الله – ﷺ - "أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله، وأوصيه بجماعة المسلمين أن يعظم كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر عالمهم، وألا يضربهم فيذلهم، ولا يوحشهم فيكفرهم وألا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم."(٤)

---

(١) النهاية لابن الأثير .جـ ١ ص ١٠٣ .
(٢) من أدب النبوة د/ أحمد عمر هاشم جـ ١ ص ٩
(٣) صحيح البخارى "كتاب الصلح" رقم ٢٦٩٧ .
(*) قرر الرسول – ﷺ - أن يترك وصيته معلنة لمن يخلفه فى ولاية أمر المسلمين من بعده ،
والمراد به أى خليفة يلى أمر المسلمين من بعد النبى(ﷺ) إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها
(٤) السنن الكبرى للبيهقى .

إنها وصية الرسول – ﷺ - للخليفة من بعده تضم العناصر السبعة الأساسية التى ينبغى أن يلتزم بها الحاكم مجتمعة وألا يخل بواحدة منها فالخليفة الذى لا يلتزم بتقوى الله يكون صدى حكمه مختلاً ؛ بل تكون إمارته فاسدة، والحاكم الذى لا يعظم الكبير ولا يرحم الصغير، ولا يوقر العلماء حاكماً فاسداً، وإن حاكماً يضرب جماعة المسلمين ويوقع الرعب فى قلوبهم ويغلق بابه دونهم يكون مدمراً لدولته، فالوحشة هى المجافاة.

وإغلاق الحاكم بابه فى وجه الناس إهدار لمصالحهم فيكفرون به خليفة وراعياً، وتتسع دائرة القطيعة والكراهية بينه وبينهم،فتضعف مكانته كخليفة، وتضطرب أمورهم كرعايا ويسود الظلم ويفتقد الأمن والأمان.

هذه هى وصايا النبى – ﷺ - ولو أن أحكام المسلمين التزموا بها وعملوا بما جاءت به السنة لارتقى أمر المسلمين وكان الحال غير ما نحن عليه الآن من فقر وذل وهوان.

ونلاحظ أن النبى – ﷺ - صدر كلاً من الوصيتين بأصل الإيمان وهو تقوى الله.

الترغيب فى الزهد فى الدنيا

عن المُسْتَوْرِد بن شداد – رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « والله مَا الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هذه فِى الْيَمِّ - وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ - فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ».(١)

الصور البلاغية فى الحديث:

بدأ رسول الله – ﷺ - الحديث بقوله: " والله " أسلوب قسم، والقسم من المؤكدات اللفظية القوية، وله خصائص تمنحه القدرة على التأثير حيث أنه يقوم بدور التهيئة النفسية للمخاطب بإثارة انتباهه لما سيخبر به فستقبله مستجمعاً حواسه

(١) صحيح مسلم شرح النووى حديث رقم ٢٨٥٨ جـ ١٧ ص ٢٩٨ .

معنى الحديث: الحديث يصور هوان الدنيا وضالتها ،وسرعة انفضائها بكل ما فيها من متع وشهوات ، والمراد ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة فى قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذى يعلق بالإصبع إلى باقى البحر .

مركزاً فكره وانتباهه إليه ؛ ذلك لأن الإنسان إذا حلف على شيء كان ذلك دالا على أهميته، وأنه مما تجب العناية به، ونلاحظ أيضاً أن القسم يكون بشيء عظيم، وذكر المقسم به يلقى فى النفس مهابة، ويوحى إليها بمعان تجعلها أكثر استعداداً للتصديق والقبول. (١)

والصحابة رضوان الله عليهم يجزمون بصدق النبى فى كل قول وفعل، فلا يقسم ليجذب القلوب لتصديقه، وإنما ينصرف وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور الهامة ذات البال التى ينبغى أن يستشرف لها السامع، ويتلقاها تلقى الاهتمام، لما تعيه من مدلول دينى خطير فى حياة الفرد والمجتمع،فيؤكد هذا الخبر لأصحابه، ويلفتهم إليه حتى لا تفتنهم سعة حاضرهم، وزخرفة ما حصلوا منه غرورا.

فيُرى أمته منزلة الدنيا من الآخرة، والناس ما رأوا غير دنياهم، وهم يرونها واسعة شاسعة مضت فيها القرون وتتابعت الأمم، ولم يروا الآخرة لأنها غيب غائب. (٢)

ولتأكيد هذا الأمر وتثبيته فى نفوس السامعين نرى النبى – ﷺ - يستخدم التشبيه لتحقيق هذا المعنى وهو حقارة نعيم الدنيا فى منظور نعيم الآخرة، فيضرب مثلاً للدنيا فى الآخرة، بإنسان غمس إصبعه السبابة فى اليم فبم يرجع ؟

أى مقدار ما يعلق بالإصبع من الماء هو البلل، ولا وجه للمقارنة بين ما علق بالإصبع واليم. (٣)

فشبه الدنيا بما علق بالإصبع من الماء، لزوالها وفنائها، وشبه الآخرة باليم لبقائها واتساع أرجائها، والتشبيه مفرد عقلى.

هكذا يؤكد النبى – ﷺ - لأمته بأسلوب التشبيه أن ما يملك الناس جميعاً من الدنيا من البدء حتى النهاية يعادل لتفاهته وقلته ما يصيب من البلل إصبعاً غمست فى اليم. وقد اختار المشبه به من واقع الحياة.

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية بتصرف ص ٣١٧ .

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ١١٧ .

(٣) أثر التشبيه فى تصوير المعنى د/ عبد البارى طه سعيد ص ٢٩٧ .

وفى هذا تصوير لحقارة ما يتردى فيه الغافلون من مستنقع الشهوات الآثمة من حطام الدنيا.

وجملة القسم جملة مؤكدة فى ذات نفسها فضلاً عن تأكيدها بالقسم وتأكيدها الذى دخل فى مبناها هو القصر بالنفى والاستثناء (ما وإلا) وهى أم أدوات القصر ولتثبيت المعنى فى النفوس وإقراره فى القلوب، وهى تستخدم فى حكم من شأنه أن يجهله المخاطب وينكره، وهذا أمر معلوم للمخاطبين فهم يعلمون أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة دار بقاء، وأن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة، واستخدم النبى – ﷺ - طريق القصر بالنفى والاستثناء لتنزيل المعلوم منزلة المجهول، لتثبيت المعنى فى النفوس، وإقراره فى القلوب.

هذا وقد حفل الحديث الشريف بألوان من التصوير ففيه بجانب التصوير بالتشبيه أيضاً تصوير بالكناية، وقد حرص النبى – ﷺ - على التعبير عن المعانى بالصور الحسية، وجعل للكناية النصيب الأكبر والحديث كناية عن صفة التهوين من شأن الدنيا، وأنها بالنسبة للآخرة لا تعدل كمية الماء التى تعلق بإصبع المرء إذا أدخلها البحر.

كما فيه أيضاً تصوير بالموازنة، وأسلوب الموازنة ورد كثيراً فى الحديث النبوى، وقد جمع بين الإمتاع والإقناع، أما الإمتاع فلأن القارئ والسامع يكونان أمام صورة تربط بين شيء معروف وأمر جديد يتعرفانه، وأما الإقناع فلأن الموازنة تجعل الإنسان يأخذ بالرأى يدل عليه الدليل، وحرف الجر "فى" يفيد الموازنة بين الاثنين ويسميها العلماء " فاء المقايسة " وهى التى تقع بين شيئين بقصد تعظيم ما بعدها وتحقير ما قبلها، والموازنة التى أفادها حرف الجر فى هى المقصودة فى الحديث، فالغرض توضيح هذه النسبة فى أذهان المسلمين وبهذا البيان الجلى لا يصعب على عاقل ان يختار، ومن ذا الذى يرضى ان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير.

فالحديث الشريف يبين أن شأن الدنيا قليل، وما هى بالنسبة إلى الآخرة إلا مثل ما يعلق بالسبابة إذا أدخلت البحر.

هذه الدنيا وما فيها لا تكاد تذكر أمام الآخرة، ومن يقرن كمية الماء العالقة بالسبابة بالبحر العظيم المحيط .[1]

ونلاحظ أن الحديث بما تضمنه من تأكيدات تتناسب مع أهمية الخبر الذى يتضمنه، ومن تشبيه يصور المعانى التى يصعب على العقل الإحاطة بها،وفى إيجازه يترك للمتلقى أن يستقصى مالا يحصى من الصور التى تندرج تحت ما أفصحت عنه كلماته القليلة، فلم يعين الجوانب التى يتحقق فيها التفاوت بين الدنيا والآخرة مما يجعل التفاوت شاملاً لكل ما يتصور ان يكون فيه تفاوتاً، فالتفاوت فى الزمان وديمومته،وفى المكان ورحابته، وفى المباهج واللذات وتنوعها وصدق الله العظيم حيث يقول فى حديثه القدسى (أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

وبهذا يكون الحديث الشريف قد حقق غرضه كاملاً لأن هذا المعنى إذا استقر فى نفس المؤمن حمله على العمل الدءوب والعمل المتواصل أملاً فى أن يكون من أهل الخير.[2]

(١) أنظر التصوير الفنى فى الحديث د/ محمد الصباغ ص ٥١٥ .
(٢) لمحات من هدى النبى ﷺ وبلاغته ص ٤٠ .

الترغيب فى حفظ اللسان عن الكلام

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ –رضى الله عنه- عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً يَهْوِى بِهَا فِى جَهَنَّمَ».(١)

الصور البلاغية فى الحديث:

بدأ الحديث بأسلوب توكيد " إن العبد ليتكلم بالكلمة " جملة اسمية مؤكدة بإن واللام، والأمة تتلقى عن رسول الله – ﷺ - بلاغة الذى يبلغه عن ربه دون حاجة إلى توكيد، لأن خبره عليه السلام خبر معصوم، فالتوكيد يشير إلى خطر هذا الأمر ويلفت وعى السامع وانتباهه لما له من أهمية وأنه عند الله بمكان.

وعبر بالجملة الاسمية لإفادة الثبوت والدوام.

وتعريف العبد " **بلام الاستغراق** " ليشمل كل عبد.

الكلمة: مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء وأراد الكل والمراد الكلام المشتمل على ما يفهم الخير أو الشر سواء طال أم قصر، كما يقال للقصيدة كلمة، والخطبة كلمة، وكلمة الشهادة.

والمجاز المرسل وسيلة من وسائل التوسع فى اللغة والافتنان فى التعبير ويحقق المبالغة من خلال جعل الكل جزء، والجزء كلاً، والعدول عن الحقيقة إليه يحقق

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١١ ص ٣٠٨ .

اللغة : **لا يلقى لها بالاً** : لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر فى عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئاً ، **يهوى** : الهوى أى السقوط .

معنى الحديث : الحديث الشريف بين رحمة النبى – ﷺ - بأمته وحرصه عليهم فيحذرهم من خطورة إطلاق اللسان بالكلام فينبغى على الإنسان أن يصون لسانه عن اللغو والسوء وأن يتقى المزالق والعثرات والضرب فى أعراض الناس ، لأن عاقبة ذلك أحط الدرجات وأوضعها عند الله وهو الخزى والهوان والسقوط فى هاوية جهنم أما من يمسك عليه لسانه فلا يتكلم بما لا يعنيه فينطلق لسانه الصادق بأطيب الكلام ويستغرقه فى الدعوة الصالحة لوجه الله فهذا يرفعه الله إلى أعلى الدرجات مع النبيين والصديقين فيمتع بالنعيم المقيم .

أغراضاً عظيمة فى صناعة الكلام كما يصور المعنى أدق تصوير، وهو هنا أفاد أن القليل من الخير نافع كما أن القليل من الشر ضار، فما كان فى جانب رضا الله ولو كلمة كان لها عظيم الثواب والأجر الكريم، وكذلك العكس ما كان فى جانب سخط الله وعدم رضاه ولو بكلمة واحدة يتهاون بها الإنسان يلقى بها العذاب الأليم، وهى توحى بأن هذا الشر ربما تحقق بأقل قدر من الكلام مبالغة فى التحذير من التلفظ بأى لفظ مهما قل دون تدبر.

وقوله - ﷺ - " **من رضوان الله** " آثر التعبير بصيغة المبالغة "رضوان" للدلالة على كمال الرضا وتمامه، والكلمة تلقى بظلالها فالرضوان نقيض السخط، والرضوان هو النعيم والسرور والحبور.

يرفعه الله بها: أى بسببها، والتعبير بالفعل المضارع يرسم الصورة كأنها محسة مشاهدة.

درجات: التنكير دلالة على التعظيم أى درجات عظيمة لا يدرك كنهها وعبر بقوله: **"يرفعه الله بها"** جيء بالمظهر لفظ الجلالة ولم يقل يرفعه بها، فأسند فعل الرفع إلى الله لتعظيم هذه الرفعة وهى رفعة المكانة، وعلو المنزلة.

وطريقة المقابلة التى بنى عليها الحديث الشريف تعين على وضوح المعانى وتجلية معادنها وإبراز جوهرها حيث إن رضوان الله يقابل سخط الله، ورفعة الدرجات والعزة والتكريم يقابلها التحقير والسقوط فى هاوية جهنم، والمقابلة هنا فيها تشويق وإلهاب للمشاعر فهى تؤثر فى الأسلوب شكلاً ومضموناً وكأنها تعقد مقارنة بين الطرفين مما يجلى الفرق واضحاً ماثلاً أمام السامعين، فهى مقابلة رائعة بين صنفين من البشر، تقوم على شقين وتبرز المتناقضين، وهو ما يقتضيه مقام الترغيب والترهيب.

الشق الأول: ينبه على الآثار الفعالة التى تترتب على إطلاقة اللسان الصادق بأطيب الكلام، وما يتمتع به صاحب هذا الكلم الطيب من النعيم المقيم، حيث يرفعه الله إلى مراتب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ويتوج بتاج الكرامة يوم القيامة.

وقد سيق الأثر الصالح للكلم الطيب عقبه فى صورة بيانية تمثيلية رائعة تدل على منتهى رضا الله عز وجل على عبده الذى اتقى زلل اللسان وصد وأعرض عن كل ما يقوده إلى مهاوى الرذيلة، والوقوع فى غياهب السوء فكان جزاؤه المذكور وهو الرفع إلى أعلى الدرجات.

والشق الثانى: من الحديث يكشف عن الأثر السيئ الذى يترتب على النطق الخبيث الذى يسوق صاحبه نحو مهاوى الشرور، وذلك له أحط الدرجات وأوضعها عند الله، فيعبر النبى – ﷺ - عن الجزاء الرادع الذى يستحقه أهل الخبث والضلال فى بيان تمثيلى رائع بقوله: " يهوى بها فى جهنم " فلم يقتصر على بيان العاقبة بأن صرح بدخوله نار جهنم، إنما أتى بما هو أبلغ من ذلك وأكثر زجراً، فجعل جزاءه السقوط فى هاوية جهنم، إنها صورة غيبية مخيفة ؛ لأن جهنم واسعة مترامية الأطراف ووديانها عميقة لو ألقى فى واديها حجر لظل يهوى سبعين عاماً ولما يبلغ قعرها فما بالك بإنسان، ما أضخم جهنم. الترهيب فى الحديث نجده فى قوله " يهوى بها فى النار " إنه المصير المفزع الذى ينتظر هذا الذى يطلق لسانه فيؤذى الناس، والكلمات تصور بمعناها وإيحاءها المشهد الرهيب، كلمة "يهوى" تصوره وقد زلت قدمه فانحدر يهوى فى حفرة لا قرار لها بل هى دركات بعضها تحت بعض، ثم كلمة "فى النار" جعلت هذه الحفرة التى يهوى فيها آتونا كلما أوغل فى هوية بين دركاته اشتد تلهبه، ثم قوله " يهوى بها " بيان كاشف لأى لبس فالمصير المفزع كان بسبب كلمته التى ألقاها دون أن يتدبر ما فيها ودون حساب لها أنها تبلغ هذا المبلغ من العقوبة قال تعالى (**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ**) [1].

والحرف "فى" أفاد التمكن من ذلك تمكن انحطاط وسقوط وهبوط إلى المهاوى تحقيراً لهذا العبد صاحب النطق الخبيث وحطاً من شأنه.

(١) سورة النور آية ١٥ .

وقد جاء عن أبى هريرة –رضى الله عنه- أنه كان يقسم ويقول: " والذى نفس أبى هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً "[1]

إنها صورة رادعة تعتمد على الموازنة بين النطق الطيب والنطق الخبيث، وعاقبة كل منهما.

إن العبد ليهلك بسبب كلمة يقولها لا يلقى لها بالاً يسقط بسببها فى قاع جهنم، هكذا بين لنا النبى - ﷺ – عاقبة من لا يحفظ عليه لسانه، والحديث الشريف يقرر أن كلام الإنسان مؤاخذ به محاسب عليه،كما يحث على حفظ اللسان وتنزيهه عن النطق بما يسوء، والإيجاز فى الحديث فيما تضمنه لفظ " **كلمة** " من اتساع وعموم، والمراد منها كل قول يغضب الله.

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٧٢ .

المبحث الثانى
مواعظ النبى " ﷺ "
فى الترهيب
الترهيب من المسألة

عَنْ سَمُرَةَ بن جندب – رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ: « الْمَسَائِلُ كُدُوحٌ يَكْدَحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ أَوْ فِى أَمْرٍ لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا ».(١)

وفى رواية الترمذى: عَنْ سَمُرَةَ بن جندب – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله - ﷺ -: (إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه).(٢)

ورواية أخرى: (من سأل وله ما يغنيه جاءت يوم القيامة خموش أو خدوش أو كدوح فى وجهه).(٣)

<u>الصور البلاغية فى الحديث:</u>

هذا الحديث برواياته المتعددة يقرر عقوبة السائل يوم القيامة، إن سؤال الناس للتكثر يجلب لصاحبه العذاب الشديد، والفضيحة المخزية، وذلك إذ لم يكن الإنسان

---

(١) تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول جـ ٤ ص ٤١ ، سنن النسائى جـ ٣ ص ٦٢ حديث رقم ٢٥٩٩ . **والبد** :
الطاقة ، والفراق لابد أى لا فراق ، **والبد** : المحالة لابد أى لا محالة .

(٢) سنن الترمذى جـ ٢ ص ٣٠ ، الدرر المنثور جـ ١ ص ٣٥٩ .

(٣) الخدوش جمع خدشوهى خمش فى الوجه بظفر أو حديده .

- المسلم يتعفف مهما كان فقيراً ، ويظل حريصاً على ماء وجهه يصونه عن الابتذال ، والقناعة كنز لا يفنى ، ومتى فتح المرء على نفسه باب السؤال ، فقد فتح عليه باب الذل ، لكن أحياناً هناك أمور يفاجئ بها الإنسان وترغمه على السؤال ، فيكون مضطراً لذلك فهذه مسألة مستثناة فيباح له السؤال ، وكان الرسول – ﷺ - يُعلم أصحابه عزة النفس والتجلد والصبر ، ويدعوهم إلى القناعة والزهد ، وقد التزموا بذلك . انظر كتاب عندئذ قال الرسول ص ٢٤٦ .

مُرغماً عليه، ولم تكن هناك حاجة ملجئة للسؤال، عندئذ تكون المسألة كدوحاً فى وجه السائل، إنها صورة مؤلمة تتحول المسألة إلى خدوش تملأ وجه الرجل.

ولما كانت المسائل هى مدار التحذير والتنفير جعلها مقدمة فكانت مبتدأ، وجُعلت آلة الكدح، وبنى الكلام عليها وجعلت الكدوح خبراً عنها وهو تشبيه بليغ حيث شبه المسألة بالآلة التى يكدح بها الرجل وجهه بجامع الإيذاء فى كل منهما، وحذف الوجه والأداة للمبالغة فى الصفة.

وقوله – ﷺ - " يكدح بها الرجل وجهه "

جملة فعلية وصف للخبر الذى هو كدوح، وعبر بالجملة الفعلية لإفادة التجدد والحدوث، فكلما جدت مسألة وحدثت جد معها كدح لوجهه.

وأسند الفعل فى جملة الصفة إلى السائل للدلالة على أن الكدوح المتجددة حاصلة منه بنفسه، وليست بمصدر خارجى عنه،ذلك زيادة فى تصوير المسائل تلك الصورة البشعة المنفرة.

وإيثار التخصيص على الإطلاق فى قوله: يكدح بها الرجل وجهه)، والكدوح المطلقة تكون فى أى جزء من الجسم.

فخصه بالوجه ؛ لأنه أشد إيجاعاً حسياً ونفسياً ومعنوياً لشدة إحساس الوجه ؛ لأنه يجمع أدوات الإحساس ومنافذ الإدراك، وانكشافه عن ساتر يستره يمنع همزات الهامزين وتقزز المشمئزين. (١)

ولهذا فتخصيص الكدوح بالوجه تكون أعظم تنفيراً، وأشد ترهيباً من المسائل إذ هى السبب فى الإيجاع الحسى والنفسى.

وقوله: (فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء تركه) ليس المراد منه التخيير بن الإبقاء والترك، وإنما أراد به التهديد والتوبيخ، أى من شاء بقى على المسألة وسيرى عاقبته المخزية، ومن شاء صان ماء وجهه وكرامته فهو كقوله تعالى:"(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، وتضمن الحديث محسناً بديعياً معنوياً وهو الطباق بين "أبقى، وترك" والطباق له أثر بالغ فى إظهار المعنى وإيضاح المراد، وهو يزيد المعنى جمالاً ويثير النفس ويبعث فيها التأمل والنظر لادراك ما وراء اللفظين وما ينبغى الالتزام به إزاء كل معنى من المعنيين.

(١) انظر الحديث النبوى من الوجهة البلاغية بتصرف ص ٤١٦ .

واستثنى النبى – ﷺ - حالة الاحتياج والضرورة كالأمور التى ترغم الإنسان ولا يتحملها بأن يسأل فيها ذا السلطان، اى يسأله شيئاً فحذف المفعول لقصد العموم،ويساله فى أمر لا يجد منه خلاصاً ولا مهرباً، فليس السؤال هنا مباحاً على إطلاقه، إنما يحاول الخلوص دون اللجوء للسؤال فالتعبير بالجملة الفعلية فى قوله: (لا يجد منه بد) يدل دلالة واضحة على تجدد محاولة وجود البد قبل السؤال حتى ينتفى الأمل فى وجوده حينئذ يسأل ويُغفر له ذلك.

وهكذا يصور لنا الحديث الشريف أن السائل حين يسأل تكون مسألته آلات حادة يستعملها هو بنفسه لتشويه وجهه وتقبيح منظره، فلنزهد جميعاً عما فى أيدى الناس، ولنمتثل قول رسولنا الكريم: (**ما فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**) (١)

الترهيب من الكبر والمن

عَنْ أَبِى ذَرٍّ –رضى الله عنه- عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قَالَهَا ثَلاَثًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَالَ « الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ » (٢).

وفى رواية ثانية عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ –رضى الله عنه- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »(٣).

---

(١) رياض الصالحين ص ٢٤٨ ، تيسير الوصول جـ ١ ص ١٦١ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية حديث ١٧١ جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ١٧٢ جـ ١ ص ٢٩٨ ، وسنن البيهقى جـ ٨ ص١٦١.

اللغة : المسبل : الذى يجر إزاره خيلاء .

المنان : الذى يعطى ما استخلفه الله فيه من الرزق ثم يفسد ما أعطى ويبطله بالمن والأذى إذلالاً للكرماء من خلق الله ، واحتقاراً لهم ، **عائل مستكبر** : الفقير المتكبر . =

الصور البلاغية فى الحديث:

وردت كلمة " ثلاثة " بالهاء على معنى ثلاثة رجال أو ثلاثة أشخاص، كما وردت بحذف الهاء على معنى ثلاث أنفس و " ثلاثة " تحديداً لافتا يتقدم به الحديث وهى مثير لفظى يوقظ الغافل ويشده ليتعرف على ذلك المجهول المتحدث عنه.

وهى نكرة منونة مبهمة لا يعلم معنى تنكيرها، ثم يكشف عن معنى التنكير والغرض منه بهذا الوصف "لا يكلمهم الله" وهو التحقير إلى درجة الحرمان من أسمى الخير.

وقوله: ولا ينظر إليهم: كناية عن عدم الإحسان إليهم يوم القيامة.

والحديث الشريف تضمن أربع جمل موصولة تتصف بمجموعها النكرة ثلاث منها منفية تجرد النكرة من أجر الثواب، وصالح العمل هم " لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم " وجميعها جمل فعلية فعلها مضارع يدل على التجدد والحدوث أى الحصول بعد العدم، وقد انتفى عنهم أزلاً فانتفى أبدا لا لذواتهم ولكن لصفاتهم الموجبة للحرمان، واستخدم الفعل المسبوق بلا النافية لزيادة تأكيد انصراف الله عمن يرتكب هذه المخالفات، كما تدل أيضاً على أن من برئ من تلك الصفات تتجدد له صفات المثوبة والإكرام جزاءاً له.

ثم تأتى الجملة الرابعة وهى مثبتة لتقرر ذلك وتؤكده بما فيها من تأكيد ومبالغة "ولهم عذاب أليم". وهى جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام قدم فيها الجار والمجرور (المسند) على المسند إليه ؛ لإفادة قصر العذاب عليهم قصر صفة على موصوف أى لهم لا لغيرهم، ثم يوصف المسند بصيغة المبالغة "أليم" ليقطع كل وهم يستبقى لهم شيئاً قليلاً من الأمل فقد استحقوا عذاب مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ومن سلب تلك المكارم جدير بذلك العذاب،.وتنكير "**عذاب**" ووصفه بأليم يدل على التعظيم والتهويل، أى بشرهم بعذاب عظيم هائل لا يدرك كنهه ولا يحيط به الوصف لابهامه وفخامته.

= معنى الحديث :

ثلاثة أشخاص يغضب الله عليم يوم القيامة يوم تجزى كل نفس ما عملت فلا ينظر إليهم نظر عطف ورحمة وإنعام بل نظر مقت وازدراء ، وقيل لا يلتفت إليهم مطلقاً إعراضاً عنهم وزيادة سخط عليهم ، ولا يظهر نفوسهم فى الدنيا من دنس ذنوبهم ولا يباركهم ولا يشملهم برضوانه ، ولهم عذاب مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم وهم أصحاب الصفات المذكورة . انظر الأدب النبوى للمرحوم محمد عبد العزيز الخولى ص ٣٥ .

والجمل الموصولة الثلاث يلزم بعضها بعضاً من جهة المعنى، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه، محروم لا شك من نظره إليه، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه غضباً لا يكون محل تزكية، ثم من كان كذلك ليس له إلا العذاب الأليم.

ووصلت هذه الجمل بالواو

للاتفاق فى الخبرية لفظاً ومعنى، والتناسب وعدم المانع من الوصل أو لأن العطف يقتضى المغايرة، والمغايرة حاصلة بالتنويع ؛ لأنها ألوان من العذاب بعضها غير بعض، وكونها كذلك أشد فى الإيجاع وأدل على الجريمة، فالكلام غير النظر، والتزكية أعم من أن تكون كلاماً [1].

وهذا كله يكرره البيان النبوى ثلاث مرات تكريراً لفظياً يوجبه التقرير، لتوكيد وتثبيت المعنى فى القلوب، وبثه فى النفوس ؛ لأن الأمر إذا ما أكد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ فى النفس على أنه حقيقة ثابتة، والتكرار سنة بيانية من سنن العرب جاء عليها القرآن الكريم كما جاءت به السنة النبوية لقصد العناية والاهتمام بالأمر، وعلة إعادة النبى – ﷺ - الكلمة ثلاثاً الإبلاغ فى الكلام، والأجر فى الموعظة.

إن هؤلاء الثلاثة ما يزال أمرهم مبهماً، وأن الوعيد والسخط ليعظم، لذلك لم يصبر أبو ذر –رضى الله عنه- وإنما بادر مخبراً عنهم بالخيبة والخسران وسائلاً من هم يا رسول الله ؟ تعظيماً للنبى – ﷺ - تنزيلاً لبعد المكانة منزلة بعد المكان وفى الحديث تصوير بالموسيقى[2]، فالموسيقى ميالة إلى القوة والعنف ، لأن أسلوب الحديث فيه زجر، حيث نجد أن موسيقى الجمل تكاد تدل السامع على معناها فقد بدأ بهذا الإبهام " ثلاثة " واستخدم الفعل المسبوق بلا النافية، مع تكرار **"لا"** مع كل فعل منها هذا زيادة فى التأكيد فى انصراف الله عمن ارتكب هذه المخالفة، كما تلاحظ أن الصورة فيها تناسق رائع وانسجام بين الذنب والعقوبة.

ثم يأخذ فى بيانهم بقوله المسبل: الذى يجر إزاره خيلاء ينازع الله رداء عظمته، عقوبته من الله عز وجل ألا ينظر إليه، دلت هذه العقوبة على الاحتقار بالإضافة إلى العذاب الأليم فى الآخرة.

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٨٥

(٢) التصوير الفنى فى الحديث ص ١٩٤ ، (٢). التوشيع:هو كل مثنى او جمع ذكر ثم فصل سواء كان فى اول الكلام اواخره يحصل به الايضاح بعد الابهام وهو من صور الاطناب انظر شروح التلخيص ج٣ ص٢١٦

والتناسق واضح فى الحديث فالمتكبر الذى جر إزاره كبراً ليعظم فى أعين الناس معاقب بالاحتقار من الله وعدم النظر إليه.

وفى الحديث تسجيل لعادة اجتماعية كانت موجودة، وهى جر الإزار لإظهار الغنى والرفعة، وعلو المكانة الاجتماعية للتعالى على عباد الله.

والثانى: "المنان" الذى يفسد عطيته بالمن والأذى كفراً بأنعم الله وإذلالاً للكرماء من خلقه، واحتقاراً لهم فيعاقب بالاحتقار من الله فالجزاء من جنس العمل، فلا ينظر الله إليه، بل يعرض عز وجل عنه.

والثالث: المروج سلعته بيمين فاجرة كذوب يقتطع بها عرضاً فانياً.

وخص النبى – ﷺ - فى الرواية الثانية (الشيخ الزانى، والملك الكذاب، والعائل المستكبر)، لأن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده.

فالشيخ الزانى لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء وعنده ما يريحه من دواعى الحلال فى هذا فكيف بالزنا الحرام ؟

والملك لا يخشى احد من رعيته فهو غنى عن الكذب مطلقاً.

والعائل الفقير قد عدم المال وسبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع عن القرناء بالثروة فى الدنيا لكونه ظاهراً فيها، وإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره ؟

فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزانى، والملك الكذاب، إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله عز وجل وقصد معصيته لا لحاجة غيرها.

وتضمن الحديث الشريف اسلوب التوشيع (٢) وهوصورة من صور الاطناب بالايضاح بعد الابهام ففى قوله "ثلاثة " اجمال وابهام، ثم جاء التفصيل والبيان بعد هذا الإجمال فى أول الحديث.

فقال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحف الكاذب، ولا شك أن فى ذلك تنبيه للذهن أولاً فى ذكر الإبهام والإجمال "ثلاثة" ثم تمكين للمعنى وتقرير له فى النفس بالبيان والكشف عن هؤلاء الثلاثة، لأن الشيء إذا ذكر مجملاً ثم يعاد ذكره موضحاً مفصلاً كان أثبت فى النفس وأمكن.

الترهيب من الظلم

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ »[1].

الصور البلاغية فى الحديث:

كان رسول الله – ﷺ - يعلم أصحابه مكارم الأخلاق، ويضرب لهم الأمثلة، ويقدم لهم النماذج، ويحاورهم حتى يكون العلم أسبق إلى قلوبهم، وأرسخ فى عقولهم، وأبقى فى سلوكهم.

وأحياناً يقدم لهم مفاهيم جديدة لأمور اصطلح الناس عليها وفهموها فهماً معيناً فيغير هذا الفهم، ويقدم لهم الحقيقة الكاملة نحو قوله – ﷺ - أتدرون ما المفلس ؟ لقد سألهم – ﷺ - عن المفلس ما هو ؟ فأجابوا بما هو جار فى عرفهم وبلغه علمهم " المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع " وهم بعد هذه الإجابة يتطلعون إلى إخبار الرسول (ﷺ) وبيانه لحقيقة المفلس، لقد أثار وجدانهم ونبه عقولهم

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٨١ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

معنى الحديث : يتحاور النبى – ﷺ - مع أصحابه حول مفهوم المفلس وقد شاع بين الناس أن المفلس هو الذى ارتكبته الديون فلا يملك مالاً ولا عقاراً ، لكن هذا مفهوم نسبى قد يزول فقراء اليوم أغنياء الأمس فدوام الحال من المحال ، فيبين لهم النبى حقيقة المفلس ، وهو من يأتى يوم القيامة بعبادات من (صيام وصلاة وزكاة) وعليه حقوق للعباد حقوق مادية كالمال ، وحقوق معنوية كالغيبة والقذف والسب والشتم .

فتؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته قبل قضاء ما عليه أخذ من سيئاتهم فوضعت عليه ، ثم يأتى مصير ونهاية هذا الظالم بالطرح فى النار ، فلم تنفعه حسناته ولم تغنيه أمواله وأعماله .

اللغة : **المفلس** : أفلس الرجل : إذا لم يبق له مال ، يراد أنه صار إلى حال يقال فيها ليس معه فلس . لسان العرب مادة فلس .

فجرى فى خيالهم مفلس الدنيا الذى لا درهم له ولا متاع ثم تشوقوا إلى ما يخبر به – ﷺ - عن حقيقة المفلس، فجاء بعد هذا التشويق بيان للمفلس " ان المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة.....

إن المفلس الحقيقى هو المفلس من الحسنات يوم القيامة الذى عمل أعمالاً صالحة فضاع ثوابها، وضاعت حسناتها بسبب ظلمه واعتدائه، فالناس لم يسلموا من لسانه ولا من يده ولا من ظلمه ونهبه، لقد شتم وقذف وضرب وسفك الدماء ونهب الأموال فحسناته التى استحقها بأعماله الصالحة تعطى لهؤلاء، فإن فنيت طرحت عليه خطاياهم، ثم طرح فى النار ذلك هو المفلس الذى شوقهم – ﷺ - إلى معرفته، وهو يقصد إلى تحذيرهم من الظلم والعدوان حتى لا يكون هذا حالهم ومصير ذلك المفلس مصيرهم، فالنفوس التى اشتاقت إلى معرفة المفلس تنزجر عن صفاته، وتقلع عن خصاله التى ترسخت فى وجدانها، لأنها جاءتها وهى مهيأة للتلقى متطلعة للمعرفة.(١)

بدأ الحديث بأسلوب الطلب وهو الاستفهام، والجملة الطلبية أقرب إلى التأثير فى النفس من الجملة الخبرية، والاستفهام فيه استدراجاً للمخاطب يوقفه على خطأ فهمه، وحرىٌ به أن يراجع نفسه ليحدد المفهوم على ضوء الإيمان الذى هدم كثيراً من المألوف المحايد للحق، وعبر بـ "ما" لأنه يسأل – ﷺ - عن صفات المفلس لا عن جنسه، وهى مختصة بالسؤال عن غير العاقل وعن صفات من يعقل.

ويأتى – ﷺ - بالجواب: " إن المفلس من أمتى "

جملة مؤكدة بإن واسمية الجملة والتعريف باللام لتأكيد هذا المعنى، والتوكيد يثبت المعنى فى النفس، ويقره فى القلب، وهو ثوب بيانى رائع لإبراز هذا الوعيد الصارخ سؤلاً وجواباً، شرحاً وتمثيلاً أوحت به لباقة العرض الجذاب عند الداعية الحصيف.

حفل الحديث بالعديد من الصور الرائعة التى صورت المعنى أدق تصوير.

(١) التشويق فى الحديث النبوى ص ١٨ .

أصل لفظ "المفلس" موضوع فى اللغة لمعنى عدم وجود المال أفلس الرجل إذ لم يبق له مال واستعير لمعنى آخر نفاذ الحسنات يوم القيامة.

ففى التعبير بلفظ "المفلس" استعارة تصريحية حيث شبه – ﷺ - المفلس فى الآخرة بالمفلس فى الدنيا، واستعار المفلس فى الدنيا للمفلس فى الآخرة، والجامع النفاذ فى كل منهما مفلس فى الدنيا نفدت أمواله، ومفلس الآخرة نفدت حسناته أصبح كل منهما فى حاجة مفلس الدنيا فى حاجة إلى المال، ومفلس الآخرة محتاج للعمل الصالح، بينما يرى الإمام عبد القاهر أن اللفظ فى الحديث دال على حقيقة هذا التركيب فى اللغة ولهذا يحمل على التشبيه ولا يعد من الاستعارة ؛ لأنه لم ينتقل عن أصله يعلق بقوله: أنه – ﷺ - يبين الحكم فى الآخرة، فلما كان الإنسان إنما يعد غنياً فى الدنيا بماله ؛ لأنه يجتلب به المسرة ويدفع المضرة وكان هذا الحكم فى الآخرة للعمل الصالح ثبت لا محالة أن يكون الخالى –نعوذ بالله – من ذلك هو المفلس، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً، وهو عدم ما يوصله إلى الخير العميم ويقيه الشر والعذاب، وإذا كان البحث والنظر يقتضى أن الغنى والفقر فى هذا الوجه دالاً على حقيقة هذا التركيب فى اللغة كقولك غنيت عن الشيء واستغنيت عنه إذا لم تحتج إليه، وافتقرت إلى كذا إذا احتجت إليه وجب أن لا يعدوهما ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله [1] " "ياتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكا ة"

عبر بالفعل المضارع المجرد من اداة الاستقبال والسياق دال على استقبال الفعل لتصويره مشاهد أخروية وذلك لاستحضار الصورة فى الحال، والتنكير فى قوله "صلاة وصيام وزكاة" لإفادة التكثير والتعظيم.

ومن الصور الرائعة التى صورت المعنى أدق تصوير قوله: " **قذف هذا** " أى رماه بتهمة هو منها برئ ؛ أصل القذف الرمى بالحجارة، شبه الرمى بالكلام بالقذف بالحجارة بجامع الإيذاء والإيلام فى كل منهما، واستعار القذف للرمى، واشتق منه قذف بمعنى رمى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فى الفعل فأخرج المعنوى فى صورة محسوسة.

(١) أسرار البلاغة ص ٧٨ .

وفى قوله " **أكل مال هذا** " أيضاً استعارة تصريحيه تبعية فى الفعل أكل، أصل الأكل إدخال الطعام عن طريق الفم إلى المعدة واستعير لأخذ المال للانتفاع به دون إرجاعه، و اشتق منه أكل بمعنى أخذ على سبيل الاستعارة.

والاستعارة توحى بالتنفير من هذا الفعل الذميم وهو أكل أموال الناس بالباطل.

" سفك دم هذا " كناية عن قتله، أصل السفك الصب، وصب الدم من الجسم يستلزم إنهاء الحياة، والكناية صورت المعنى أدق تصوير، وهى تشعر بشناعة جريمة الظلم.

وفى التعبير بقوله " هذا " تعريف له بالإشارة لتمييزه أكمل تمييز كأنه محسوس مشاهد، وهو تصوير لأصحاب الحقوق كأنهم ماثلين أمامه، مطالبين له بأخذ حقوقهم.

وكرر هذا لتعدد المتعلق، فيعطى التعبير بالمبنى للمجهول بصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

وفى قوله: " فنيت حسناته " استعارة تصريحية تبعية المراد منها نفاذ الحسنات وانتهاؤها، شبه انتهاء الحسنات ونفادها بالفناء، واستعير الفناء للانتهاء، واشتق منه فنيت بمعنى نفذت وانتهت على سبيل الاستعارة التصريحية.

والاستعارة تصور المدى الذى آل إليه نفاذ أمر حسنات المفلس من انقطاع الأمل فى الانتفاع بها، بحيث لم يبقى لصاحبها أمل فيها،كما أن فى الاستعارة تناسقا مع معنى المفلس الذى ذكر فى الحديث.

" طُرحت عليه " فى الحرف" على" معنى المضرة،وهو حرف يفيد الاستعلاء والخطايا لا تطرح عليه إنما تطرح على خطاياه، وتزيد فيها فكأن هذا هم آخر استعلاه زيادة على خطاياه وآثامه.

" ثم طُرح فى النار " هذا بيان لمصير المفلس ونهاية الظالم فلم تنفعه حسناته ولم تغن عنه أمواله وأعماله وعبر بـ "ثم" للدلالة على الترتيب والتراخى والإمهال لأخذ كل ذى حق حقه، وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم،وهو تصوير لمدى تألم هذا الظالم بالانتظار لملاقاة مصيره المؤلم.

آثر بناء الفعل للمجهول لما فيه من الإهانة والأخذ بقوة وقهر من جانب ملائكة العذاب للرمى به فى النار دون إرادة منه.

هذا هو المفلس الحقيقى فما أهون تحصيل الدراهم، والأمتعة والعمل على إيجادها، حالة هذا الرجل الذى أضاع الحسنات يوم القيامة فى ذلك اليوم الذى لا يتاح للمرء أن يكتسب شيئاً وهذا هو الإفلاس الحقيقى، وفى الحديث تصوير بالوصف.

حيث نلاحظ أن الوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة وحسن الإدراك وهو أبلغ من أى وسيلة بيانية مألوفة حيث ينقل أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحسه بحواسك، وتلمسه بيديك.

كما أن الموصوف أمرا غريباً لا سبيل إلى نقله إلا عبر هذا الطريق الذى يتخيله السامع واقعاً ملموساً يراه بعينه، وهذا يعلى شأن الوصف فى التصوير.

وهذا الوصف الدقيق الحى يؤدى غرضاً دينياً هو الامتناع عن الظلم فى الدنيا فقد تكون للظالم قوة يتمكن بها أن يفعل ما يشاء، لكن عليه أن يتذكر أنه يجرد من هذه القوة إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة. إن العدالة الإلهية لن تدع مظلوماً فى ذاك اليوم حتى تنتصف له من ظالمه [1].

(١) التصوير الفنى فى الحديث ص ٤٩٥ .

ترهيب الخصوم من الظلم

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضى الله عنها - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَىَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْجَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِى نَحْوَ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » [1].

وفى رواية أخرى:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضى الله عنها - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ – سمع خصومة ببـاب حجرته فخرج إليهم فقال: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّه يأتينى الخصم فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فَأَقْضِى له بذلك، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مسلم فَإِنَّمَا هى قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فليأخذها أو ليتركها » [2].

---

(١) صحيح البخارى حديث رقم ٧١٦٩ ، فتح البارى شرح صحيح البخارى ، كتاب الأحكام باب موعظة الإمام الخصوم جـ ١٣ ص ١٥٧

(٢) فتح البارى كتاب الأحكام باب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه جـ ١٣ ص ١٧٢ ، سنن البيهقى جـ ١٠ ص ١٤٩.

اللغة : **الخصومة** : خصمه خصماً وخصاماً وخصومة غلبه فى الخصام ، والخصم هو المنازع اسم مصدر يستوى فيه الواحد والجمع المذكر والمؤنث – لسان العرب مادة خصم . **ألحن** : أعرف بالحجة وأفطن لها . **أبلغ** : أكثر بلاغة ، وهى أفعل تفضيل من بلغ بلاغة فصح وحسن بيانه فهو بليغ والبلاغة حسن البيان وقوة التأثير . **أقضى** : أحكم له دون خصمه الذى لا يحسن البيان .

معنى الحديث :

الرسول – ﷺ - رحمة مهداة ونعمة مسداة وهذا الحديث يبين جانباً من جوانب رحمته وشفقته على أمته ورغبته فيما ينفعهم فى أولاهم وأخراهم بحفظ حقوقهم وحمايتهم من الظلم فيبين أنه بشر يتأثر بما يرى ويحكم بما يسمع ولا يعلم الغيب وبعض الناس يتمتع بمهارة فى الحوار وقوة فى الاستدلال وقدرة على صوغ الحجج لذاربة لسان وقوة بيان وحدة ذهن وسرعة بديهة دون بعض فمن استخدم هذه الموهبة فى قلب الحقائق وإحقاق الباطل وأخذ حق غيره فقد أخذ قطعة من النار .

الصور البلاغية فى الحديث:

" إنما أنا بشر " أى لا أعلم الغيب جملة مؤكدة بأسلوب القصر طريقة " إنما " يؤكد بها النبى – ﷺ - على بشريته التى أكدها القرآن الكريم فى قوله عز وجل " **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** "[1]

فيقصر نفسه على البشرية دون ما يقتضى علماً بالغيب إلا ما يظهره الله عليه، وفى هذا تحذير لأصحابه أن يجر أحدهم حب النصر بالباطل إلى أكبر الكبائر بأن يغش النبى – ﷺ - باللسان الخلوب فيحل لنفسه حق غيره.

ونوع القصر هنا قصر قلب أتى به رداً على من زعم أن من كان رسولاً يعلم الغيب فيطلع على البواطن، ولا يخفى عليه المظلوم فأشار – ﷺ - إلى الوضع البشرى فلا يدرك من الأمور إلا ظواهرها، فمن قضيت له بظاهر يخالف الباطن فلا يأخذ ما قضيت له به.

" وإنه يأتينى الخصم "

أى إن الحال أو الشأن أو القصة يأتينى الخصم.

الضمير فى إنه ضمير غيبة لم يتقدمه مرجع، ولم تدل عليه قرينة فوضع الضمير موضع الاسم الظاهر لتفخيم الشأن وتمكين الكلام فى نفس السامع بالإيضاح بعد الإبهام، لأن النفس إذا سمعت مبهماً تشوقت لمعرفته موضحاً فإذا جاء استقر وتمكن فى النفس ،و لعل فى قوله "لعل بعضكم ان يكون ابلغ من بعض" ليس معناها الترجى كما هو الأصل فى استعمالها، وإنما جاءت لتشعر باشفاق الرسول - عليه الصلاة والسلام - على من يسلك هذا المسلك فى الادعاء مستعملا فصاحته وقوة حجته ليبلغ ما يريد، فيحكم له فتكون عاقبته الخسران، ومصيره الخذلان بحمل قطعة من النار، واستعمال اسم التفضيل " ألجن " فى الرواية الأولى، و " أبلغ " فى الرواية الثانية " مسنداً " زيادة فى لفت انتباه السامع لمثل هذا الأمر، أى من كان أعرف بالحجة وأفطن بها واستخدم هذه الموهبة فى قلب الحقائق وإحقاق الباطل فأخذ حق غيره فهو خاسر خسراناً مبيناً، لأنه لم يأخذ إلا قطعة من النار.

وقوله: " فأحسب أنه صادق "

(١) سورة فصلت آية ٦

هذه العبارة تؤذن بأن فى الكلام محذوفاً هو المقابل للمذكور – أى وهو فى الباطن كاذب.

فأقضى له بذلك: ضمن أقضى معنى أعطى له.

" بذلك ": المراد باسم الإشارة " ذلك " أى المذكور وهو حق أخيه، ونلاحظ مافى الإشارة من معنى البعد المدلول عليه باللام للإيماء إلى تعظيم المشار إليه اهتماماً به

" من قضيت له ":

" من " اسم يدل على العموم يعنى به كل من كان على هذه الشاكلة يستحق هذا الجزاء، فلا يراد به شخص معين إنما هو تعريض بكل إنسان أخذ حق غيره.

" من حق أخيه "

" من " للتبعيض أى بعضاً من حق أخيه، والتعبير بلفظ أخيه لفظ كاشف لظلام القلب وقت ظلم الأخ لأخيه وأخذ حقه، وفيه إشارة إلى عظيم نعمة الأخوة فى الله التى تفوق فى الرحمة والإشفاق أخوة النسب.

وعبر فى الرواية الثانية بقوله: " بحق مسلم "، المراد أو ذمى، والتعبير بالمسلم خرج مخرج الغالب، أو للاهتمام بحاله، أو نظراً إلى لفظ بعضكم فإنه خطاب للمؤمنين [1].

" شيئاً " التنكير فيه للتقليل، أى من حُكم له بشئ وإن كان قليلاً فلا يأخذه فيشمل كل شيء وإن قل جداً، وهذا إمعان فى ضرورة تحرى الحلال والبعد عن الظلم والحرام.

" إنما هى قطعة من النار "

أى الذى قضيت له بحسب الظاهر إن كان فى الباطن لا يستحقه فهو حرام يؤول به إلى النار، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية حيث وضع المسبب قطعة من النار، فوضع السبب وهو أخذ حق الغير يتعاطاه فهو كقوله تعالى: **" إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا "** [2].

(١) الألف المختارة من صحيح البخارى شرح عبد السلام هارون ص ٢٢٠ .
(٢) سورة النساء آية ١٠

ويمكن حمله على الاستعارة فقد شبه أخذ حق الغير بأخذ قطعة من النار واستعار قطعة من النار لأخذ حق الغير على سبيل الاستعارة التصريحية وفيه تصوير للمعنوى فى صورة محسوسة.

فهو تمثيل يفهم منه شدة التعذيب على من يتعاطاه، ويفيد تنكير " قطعة " فى مقام التحذير والتهديد ضخامة القطعة وخطورتها، وتعريف " النار " بأل العهدية يبعد الذهن عن نار الدنيا التى مهما اشتد أوارها فمآلها إلى التراب، إنما هى النار المعهودة المتوعد بها الظالمين.

وجملة " إنما هى قطعة من النار " صورة غيبية مخيفة وهى دالة على عظم الجزاء، ومؤكدة بأسلوب القصر، أيضاً ليؤكد معنى النارية فى المحكوم به حيث قصر ما أخذه بغير حق على كونه قطعة من النار قصر موصوف على صفة، وكأنه قد سلب عنه كل صفة ولم يبق إلا كونه قطعة من النار تحرق حاملها وتذيقه العذاب والحسرة. ، واختيار طريق القصر " **بإنما** " فيه من المبالغة ما فيه، وهو أحسن مواقعها ؛ لأنها جاءت لغرض التعريض بفداحة الجرم اللازم لمفهوم المجازاة بحمل قطعة من النار هى ما استحله من حق غيره.

وبأن فاعل ذلك الجرم جهل أمراً معلوماً او تجاهله بدفع الشيطان له.

وختم الحديث الشريف بقوله " فليأخذها أو ليتركها "

أسلوب أمر، والأمر هنا ليس على حقيقته، إنما خرج لمعنى مجازى هو التهديد لا للتخيير ؛ اى التهديد لمن يستعمل بلاغته فى كسب حق الاخرين ، وهو ناء عنه، وذلك لأنه ليس هناك عاقل يخبر بين حمل النار وتركها، إنما هو كقوله تعالى: " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** "[1]

وقد ترك النبى – ﷺ - لآخذ حق غيره أن يوازن بين الامتناع عن هذا الحق والنجاة من النار، وبين أخذه وحمل قطعة من النار، وهذه الموازنة تنتهى بالمؤمن إلى الامتناع. وهكذا نستطيع أن نقف على البراعة الفنية فى الحديث الشريف وما فيه من عناصر الإثارة والتأثير مما يجعل السامع مقتنعاً بالفكرة منفذاً لها وذلك باعتماد على عناصر مستوحاة من البيئة والمجتمع بل أننا لنجد حالات يحس فيها السامع المنفعل بالنص أنه يرى فى النص نفسه وفكره ولا يجد فيه غربة ولا يشعر أن شيئاً يملى عليه، ولا شك أن الصورة الفنية تستمد

(١) سورة الكهف آية ٢٩ .

عناصر تأثيرها من البيئة والمجتمع لتبلغ درجة من الواقعية، وتصل إلى وجدان السامع وعقله فلا يكون هناك حائلاً دون التأثير والاقتناع.

والحديث تصوير لواقع اجتماعي يحصل فى خصومات الناس، وذلك أن بعض أصحاب البيان والمقدرة يستطيعون أن يلبسوا على القاضى حتى يحكم لهم، فيقرر النبى – ﷺ - أن حكم القاضى لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، إنه يقطع له قطعة من النار إن أخذها [1].

هكذا نجد الهدى النبوى معبراً أدق تعبير ومصوراً أدق تصوير حيث يضع المسلم أمام اختيار صعب على أصحاب المطامع الذين يستهواهم أخذ حقوق غيرهم " إنما هى قطعة من النار ".

فلا يظن بقوة حجته، وحسن بيانه أن ما قضى به صار حلالاً ؛ بل عليه أن يتقى ما ينتظره من العذاب، والوعيد الشديد إن أخذ حق غيره.

فعلى المسلم ألا يظلم أخاه ؛ لأنه لا يقول إلا حقاً ولا يعمل إلا خيراً.

❁❁❁

الترهيب من أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويخالف قوله عمله

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ –رضى الله عنهما- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » [2].

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث ص ٥٧٩ .

(٢) صحيح مسلم شرح النووى جـ ٩ ص ٢٩٢ كتاب الزهد باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ، فتح البارى شرح صحيح البخارى كتاب الفتن باب الفتنة التى تموج كموج البحر جـ ١٣ ص ٥٢

اللغة : **تندلق** : تخرج ، الاقتاب بكسر القاف وسكون التاء جمع قتب وهى الأمعاء وقيل هى ما استدار فى البطن وهى الحوايا والأمعاء ، واندلاقها خروجها سرعة يقال : اندلق السيف من غمده إذا خرج من غير أن يسله أحد . **المعروف** : اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه . **المنكر** : ما خالف مما شرعه الله وخرج على مقتضاه . =

الصور البلاغية فى الحديث:

هذا مشهد من مشاهد العذاب يصوره البيان النبوى هذا التصوير المروع البشع إنه منظر شنيع ومشهد كئيب، رجل كان فى الدنيا يأمر بالمعروف ولم يكن يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه، يؤتى بهذا الرجل يوم القيامة فيلقى فى النار، وكأنه قطعة من الحطب، فتنشق بطنه وتخرج أمعاؤه. فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، وليس هناك صورة تبلغ من الفظاعة ومن إثارة التقزز من صورة الرجل الذى خرجت أمعاؤه من بطنه، وهو يدور بها يجرها خلفه وهى معلقة به هذا أمر ممكن الوجود فى الدنيا، لكنه تندر مشاهدته فاحتاج إلى تقريره بالتمثيل وهو دوران الحمار بالرحى، هى صورة محسة مشاهدة هذه الصورة البشعة الدالة على العقوبة الشديدة صورها البيان النبوى تصويراً بليغاً.

المشبه: صورة الرجل فى النار وقد خرجت أمعاؤه من بطنه.

المشبه به: صورة الحمار يدور بالرحى وهو تشبيه تمثيلى [1] نوعه مركب حسى حيث شبه حالة بحالة أو هيئة بهيئة، والغرض منه تحقير صورة المشبه، والتنفير منها، وهذا التشبيه لما كان فى جانب العظة والاعتبار كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ فى التنبيه والزجر [2].

ونلاحظ فى الحديث الشريف أن القضايا تتلاحق يعقب بعضها بعضاً تنقل كل منها أنفاس السامعين من حالة إلى حالة أعلى منها حتى يصل إلى النتيجة

= **المعنى** : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سنة الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان ، وهو وقاية للأمة تحفظها من كل عوامل الانحراف ، أعد الله للقائمين به أجراً عظيماً ، وتركه سبب العقوبة الشديدة من الله فى الدنيا والآخرة ، أما من أمر بمعروف ونهى عن منكر وخالف فعله وقوله كان له يوم القيامة العذاب الشديد الغليظ وقد شدد الله النكير على من يسلكون هذا المسلك قال تعالى : **"أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ "** البقرة آية ٤٤ ، وقوله **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ"** الصف الآيات ٢-٣ ، كما بينت السنة أن صاحب هذا التصريف الأحمق يستحق أشد العذاب وفى سبيل التأكيد على خطورة هذا التصرف المتناقض يقول أبو العتاهية :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذا عبت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناسا را غبين لها وأنت أشد منهم رغبة فيها

(١) أثر التشبيه فى تصوير المعنى د/ عبد البارى طه سعيد ص ٢٢٧ .
(٢) أنظر أسرار البلاغة ص ١٠٢ .

المبتغاة وهى ما يريد – ﷺ - غرسه فى الصدور من المهابة من الشيء والنفور منه، ولهذا كثر ورود " الفاء " فى الحديث وهى مقدمة لكل فعل تفيد الترتيب والتعقيب.

كما نلاحظ البلاغة النبوية العالية فى دقة اختيار الألفاظ المعبرة فى قوله – ﷺ - "يُؤتى، يُلقى " ببناء الفعل للمجهول دليل على الإكراه والحمل على الفعل وأنه يساق إليهما سوقاً لا إرادة له، لأن كل كريه للنفس تساق إليه سوقاً، فكأن هذا الرجل حطب يلقى به فى النار، ليكون وقودها، وبناء الفعل للمجهول يتناسب مع الجو العام للحدث وهو بصدد عرض حالته النفسية بشيء من الاحتقار واللامبالاة فناسبه مجئ الفعل بهذه الصورة، هذا وقد فضل بناء الفعل للمجهول على بنائه للفاعل ؛ لأنه أوكد حيث يفيد إسناد الفعل إلى الفاعل مرتين إجمالاً ثم تفصيلاً وهذا أقوى وأوكد، كما أن الإجمال والتفصيل أوقع فى النفس ؛ لأفادته التشويق.

ثم بناء الفعلين " فتندلق، فيدور " للفاعل للإشارة إلى حصولهما منه اندلاق الأمعاء من أثر الإلقاء أو القذف، والدوران بها من أثر الصدمة، وكثيراً ما يحدث هذا عند المباغتة.

وفى قوله: " فيدور فيها " إشارة إلى الفضيحة على الملأ نكاية فى العذاب، وعبر عن كل هذا بالفعل المضارع المجرد من أداة الاستقبال مع أن السياق دال على استقبال هذه الأفعال لتصويرها مشاهد أخروية ؛ وذلك لاستحضار صورتها فى الحال تقريراً لها كأنها تدرك وتحس كما يدرك ويحس دوران الحمار بالرحى.

والسر فى اختيار الحمار دون غيره من سائر الحيوانات يتناسب مع تحقير صورة هذا الرجل ومبالغة فى التقبيح وزيادة فى التحقير.

قولهم " يا فلان " نداء القريب بما ينادى به البعيد تحقيراً له ويبدوا أن عذابه كان أليماً ومثيراً للانتباه مما جعل أهل النار(*) يجتمعون عليه وينادونه باسمه ويذكرونه بماضيه فى الدنيا (١).

(*) إنما صار المأمورون بالمعروف فى هذا الحديث فى النار لأنهم لم يمتثلوا ما أمروا به فعذبوا بمعصيتهم وعذب آمرهم لأنه كان يفعل ما يناههم عنه .

(١) التصوير الفنى فى الحديث د/ محمد الصباغ ص ١٨٧ .

" ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر " تذكير له بماضيه زيادة فى الحسرة والألم. والاستفهام إنكارى تعجبى ؛ لأنهم يعرفونه فى الدنيا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ولهذا يتعجبون أشد العجب لما أصابه فيسألون منكرين ما هو فيه مع ما كان منه فلا يستطيع أن يخفى عنهم سراً كان يخفيه لأنه قد افتضح أمره.

فيجيب جواباً يبين السبب الذى جاء به إلى هذا العذاب فى النار قائلاً: قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وانهى عن المنكر وآتيه والمناسبة بين الجريمة والعقاب واضحة جليه وهى التقابل الرجل يبطن الجرائم ويسر المنكرات فى الدنيا يفتضح أمره وينكشف داخله فى الآخرة حتى يعجب لافتضاحه من لا حق له أن يعجب ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل إنهم شركاء، فى النار(*)، وهكذا كان الجزاء من جنس العمل.(١)

كل هذه الخصائص التى تضمنها التعبير وأوصى بها مما يقتضيه مقام الترهيب الذى سيق الحديث من أجله، والحديث يرسم بكلماته المصورة شاخصة للخيال يتابع حركاتها وهو يرى هذا الرجل يساق قسراً إلى مصيره المفزع، وهى صورة تدعو كل عاقل إلى أن يأتمر بما يُأمر به، وينتهى عما يُنهى عنه، وأن يعمل بما يعلم.

والحديث يرسم بكلماته المصورة صورة شاخصة للخيال يتابع حركاتها وهو يرى هذا الرجل يساق قسراً إلى مصيره المفزع، وهى صورة تدعوا كل عاقل إلى أن يأتمر بما يأمر به، وينتهى عما ينهى عنه، وأن يعمل بما يعلم.

كل هذه الخصائص التى تضمنها التعبير وأوصى بها مما يقتضيه مقام الترهيب الذى سيق الحديث من أجله.

(*) إنما صار المأمورون بالمعروف فى هذا الحديث فى النار لأنهم لم يمتثلوا ما أمروا به فعذبوا بمعصيتهم وعذب آمرهم لأنه كان يفعل ما ينهاهم عنه .

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ١٦٩ .

الترغيب فى الجنة والترهيب من النار

عن كليب بن حزن –رضى الله عنه– قال: سمعت رسول الله – ﷺ - يقول: اطلبوا الجنة جُهدكم واهربوا من النار جُهدكم فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة بالملذات والشهوات فلا تلهينكم عن الآخرة (١).

الصور البلاغية فى الحديث:

كثر ورود الجنة فى الحديث النبوى بمعنى دار النعيم فى الآخرة سميت بالجنة تقريباً لمفهوم النعيم الأخروى إلى العباد بتشبيهها بجنة الأرض.

" اطلبوا الجنة جُهدكم "

جملة إنشائية أسلوب أمر الغرض منه النصح والإرشاد بفعل الطاعات الموصلة إلى الفوز بالجنة.

" واهربوا من النار جهدكم "

أيضاً جملة إنشائية أخرى أسلوب أمر غرضه النصح والإرشاد بالهروب والبعد عن المعاصى التى تتسبب فى دخول النار.

ووصلت الجملة الثانية بالأولى للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما فى الإنشائية لفظاً ومعنى مع وجود الجامع وهو التضاد بين المسند والمسند إليه فيهما.

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٦٤ ، المعجم الكبير للطبرانى جـ ١٩ ص ٢٠٠

اللغة : **جهدكم** : الجهد : الطاقة والوسع ، **محفوفة** : محاطة .

المعنى : يرشدنا النبى – ﷺ - كى نبذل أقصى طاقتنا وقدرتنا لكى نفوز بالجنة ، فالجنة سلعة غالية فلابد من دفع الثمن الكبير لمن يكافأ بها ومن أجل ذلك قضت حكمته تبارك وتعالى أن تكون محفوفة بالمكاره فالقيام بالواجبات أمر ثقيل على النفس لاسيما إن كان جهاداً أو آداء صلاة فى وقتها وعلى وجهها والبعد عن المحارم المبذولة رغم ميل النفس إليها كل هذه أمور يصعب على الإنسان القيام بها وتكرهها النفس فإن احتملها الإنسان راضياً مطمئناً استحق الجنة . ، والنار شيء مخيف تنفر منه النفس وتأباه وقد وضع الله حولها الشهوات المحرمة ليختبر من تكون إرادته موافقة لشرع الله فيأبى المعاصى ولو كانت تدفعه إليها شهوته .

وبين قوله – ﷺ - " أطلبوا وطالبها " جناس اشتقاق فهما مشتقان من مادة لغوية واحدة هى "طلب"، وجناس الاشتقاق ملحق بالجناس، والمراد بالاشتقاق الاشتقاق الاصغر، وهو توافق الكلمتين فى الحروف الأصول مع الترتيب والاتفاق فى أصل المعنى، ولهذا ألحق جناس الاشتقاق بالجناس ولم يدخل فيه؛ لأن ركنيه المشتقان يرجعان إلى معنى واحد، نحو قوله تعالى "**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**" فهما مشتقان من ربا يربو بمعنى زاد ونما، والجناس لابد فيه من أن يكون ركناه المتفقان فى اللفظ المختلفان فى المعنى. (١)

والجناس يضفى على النص جمالاً وحسناً، وعلى الأسلوب تلاحما وترابطا وذلك لما بين الكلمتين من المماثلة الشكلية، والتى تحدث فى النفس أثر قوياً (٢).

وجملة "**فإن الجنة لا ينام طالبها** "

نلحظ أن موسيقى الجملة تكاد تدل السامع على المعنى، فقد بدأ بهذا التأكيد القاطع باستخدام " إن "، كما استخدم الفعل المسبوق " بلا " النافية لزيادة التأكيد على عدم الغفلة عن طلب الجنة بالإقبال على الصالح من الأعمال.

وهى جملة اسمية مؤكدة، آثر التعبير بها للدلالة على الثبوت والدوام بأن يكون الإنسان المبتغى للجنة فى حالة تأهب واستعداد دائم للقيام بالأعمال الصالحة، فلا تأخذه الغفلة عن ذلك اليوم.

وجملة " **إن النار لا ينام هاربها** " جملة اسمية مؤكدة تفيد الثبوت والدوام لمن أراد النجاة من النار أن يبتعد عن الشهوات والمنكرات وعما يُقربه منها.

وقد حسن التقابل بين الجملتين. وصح العطف بين الجملتين للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود الجامع بينهما، وهو التضاد بين المسند إليه فيهما، وقد تجمل الحديث الشريف بأسلوب السجع(*) فى قوله – ﷺ -

---

(١)اما الاشتقاق الكبير فهو الاتفاق فى الحروف الاصول دون الاتفاق فى الترتيب نحو الأسف ويوسف والقمر والرمق والمرق انظر شروح التلخيص ج٤ص٢٣٣ ، أنوار الربيع جـ ١ ص ١١٥ .

(٢) انظر أنوار الربيع لابن معصوم جـ ١ ص ١١٧ ، معجم المصطلحات البلاغية د/ أحمد مطلوب جـ ٢ ص ٦٠

(*) السجع هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد وهو لون بديعى يزيد الكلام جمالاً وسحراً بما يحدثه من جرس موسيقى وتوافق لفظى ورنين صوتى فيلتفت السامع ويقبل بحسه ووجدانه ويتهيأ بذهنه وعقله لفهم الكلام المتناسب المقاطع المتماثل الأطراف فتقع المعانى فى قلبه وتثبت فى فكره .

" اطلبوا الجنة جهدكم، واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها " وهو من السجع المحمود الذى جاء لخدمة المعنى فاستدعاه لغرض واقتضاه المقام

وهذا من السجع المرصع فقد اتفقت فيه أكثر ألفاظ الفقرتين وزناً وتقفية، وهو من أحسن السجع لتساوى قرائنه، وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا اللون من البديع لما يضفيه على المعنى من حسن وبهاء، كما جمع بينه وبين الجناس فى الحسن والمزية والفضيلة فقال: " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً ".

فالسجع يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر فى النفوس تأثير السحر، لما يحدثه من نغمة مؤثرة وموسيقى قوية تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى فى الأذهان، ويقر فى الأفكار، ويعز لدى العقول.

فالسجع توجيه البلاغة ويستدعيه المقام ويتوخاه البلغاء ويقصده ذوو اللسن والبيان[1].

وكثرت المقابلات فى الحديث الشريف بين كل جملتين فى قوله " أطلبوا الجنة، واهربوا من النار، وجملة "**الجنة وطالبها، النار وهاربها**" وبين "**الآخرة والمكاره**"، " **الدنيا الملذات** "، فجعل الفانى فى مقابلة الخالد، والمحبوب إلى النفس فى مقابلة المبغوض إليها.

والمقابلة فى الحديث أعطت الأسلوب قوة وحيوية حيث جمعت أموراً لا تجتمع فى العادة، وجعلتها مقترنة متلاصقة فأرتنا الجنة مع النار، والطالب مع الهارب، والآخرة مع الدنيا، والمكارة مع الملذات، وهذا الجمع يحدث الائتلاف بين المختلفات ويحقق العناق بين المتنافرات وذلك مكمن الإبداع فى العربية [2].

وفى قوله – ﷺ - " وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، والدنيا محفوفة بالشهوات[*] " صورة فنية رائعة حيث شبه الآخرة ببستان أحيط بسور تكرهه

---

(١) الصبغ البديعى د/ أحمد موسى ٤٩٦ .

(٢) انظر البلاغة ذوق ومنهج د/ عبد الحميد العبيى ص ٥٠٢ .

(*) الفرق بين الملذات والشهوات :

الشهوة : توقان النفس وميل الطبع إلى ما يلذ ويسر .

اللذة : ما تاقت النفس إليه ونازعت إلى نيله . من لذ الشيء يلذ لذاذة أى مشتهى – الفروق اللغوية ص ٩٩ .

النفس فلا يمكن الوصول إليها والفوز بها إلا بتحمل المشاق والصعاب فجميع الأفعال التى توصل إلى الفوز بالآخرة يتجسم فعلها على الكره والمشقة، لأن طريقها وعر ومذاقها مر، فلما كانت الطرق المفضية إلى الفوز بالآخرة شاقة المسالك صعبة على السالك حسن أن يعبر عنها بهذا التعبير.

كما شبه الدنيا بالشيء الكريه المخيف إلا أنه أحيط بما تميل إليه النفس، تنجذب إليه، فالطرق المؤدية إليها ليس فيها مشقة إنما هى ملائمة للطباع كثيرة الملاذ.

هكذا نجد الصورة الفنية فى الحديث واضحة جلية متمثلة فى المكاره تحيط بالفوز بالآخرة من كل جانب، فكأنها جدار أو سور، والشهوات كذلك تحيط بالدنيا من كل جانب، ووضع الصورتين إحداهما إلى جانب الأخرى يزيد فى وضوح الصورة بالنسبة لكل منهما، وهذا التقابل بين طريقى الخير والشر الذى لا يدع مجالاً للمتلقى فى التردد فيحمله مسئوليته اختياره إذا اختار المتعة العاجلة على السعادة الآجلة.

وآثر – ﷺ - التعبير ب" المكاره" دون الطاعات، و"الشهوات" دون المعاصى فالمكاره هى فى حقيقة الامر طاعات أمر بها الشرع، وما عبر عنه بالشهوات هو فى حقيقة أمره معاصى نهى عنها الشرع وذلك لأنه – ﷺ -، نظر إلى طبيعة النفس البشرية التى تستطيب كل ممتع وتحرص على أخذ نصيبها منه غير منقوص كما أنها تنفر من كل ما يحد من رغباتها ويحول بينها وبين الانغماس فى الشهوات، ومن هنا كان التعبير بالمكاره والشهوات هو المناسب لبيان طبيعة النفس البشرية التى ما جاءت الرسالات إلا لتحد من جموحها وتضع لها الحدود والضوابط التى لا يجوز لها أن تتخطاها ومن هنا كانت هناك حاجة دائمة لتزكية ومحاسبة النفس حتى لا ينفلت الزمام.

وقوله " **فلا تلهينكم عن الآخرة**" جملة جواب الشرط مقترنة بالفاء، وحق الجواب أن يكون عقب الشرط متصلاً به والفاء تنبئ عن السرعة وتوجب ذلك، فهى تدل على التعقيب والوصل السريع أى بادروا بالابتعاد عن الشهوات والملذات والانشغال بالدنيا حتى لا تهلينكم عن الآخرة.

لأن النهى إذا دخل على ما لا يستطيع المخاطب الكف عنه يكون المراد به النهى عن موجب ذلك نحو قوله تعالى "**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**" والإنسان لا يستطيع أن يكف الموت ويبتعد عنه، فالمراد بادروا بالدخول فى الإسلام، ومنه قوله " مت وأنت كريم " أى بادر بهذه الصفة.

"**لا**" ناهية "**تلهينكم**" فعل مضارع يدل على التجدد والحدوث بالابتعاد عن

الشهوات والملذات وهى جملة مؤكدة بلا ونون التوكيد **"وكاف"** الخطاب لتأكيد النهى.

ونلاحظ أن التصوير بالموسيقى فى الحديث قام بدور هام فى إيضاح المعنى، حيث نجد كل كلمة تثير بجرسها معانى شتى، وتصور ما ينبغى للإنسان من تحمل المشقات فى سبيل الفوز بالآخرة وما يغريه بالوقوع فى شهوات الدنيا ومعاصيها فيتلظى جسده بالنار.

إن لغة الحديث تسترعى وجدان القارئ والسامع بموسيقاها، وروعة نظمها، الذى يؤلف صوراً بديعية، ولا يعتمد على الكلمات المفردة، فكلمات الحديث عندما تنضم الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها، وتزيد عذوبتها، ويحسن إيقاعها. ولعل ذلك يعود إلى الموهبة الفذة التى منحها الله لعبده ورسوله محمد – ﷺ - فى نظم الكلمات، والتآلف بين مخارج الحروف والتسلسل فى الإيقاع فلا نجد انتقالاً مفاجئاً من إيقاع إلا إذا تطلب المضمون ذلك، وإلى البعد عن التكلف وإرسال النفس على سجيتها [1].

من خلال هذه المواعظ يتبين لنا أن النبى – ﷺ - زكى معانى الخير فى النفس الإنسانية، وليس ذلك بالأوامر والنواهى، بل بأساليب الاستمالة والتشويق، فوجه عنايته لطب النفوس. وعلاج القلوب، فهو يدعو مرغباً ومرهباً كاشفاً عن الدوافع النفسية وراء السلوك، فيجد لكل نفس ما يطيب دائها ويناسب علتها.

وهكذا يظل الحديث النبوى ثابتاً فى كلماته، معطاء فى معانيه كالبحر الزاخر لا تنتهى معانيه، ولا تنفد مقاصده وأسراره، ولا ينقطع عطاؤه، فهو رسالة من النبى – ﷺ - للناس جميعاً منذ بعث وإلى أن تنتهى الأرض ومن عليها.

(١) التصوير الفنى فى الحديث بتصرف ص ٥٣٩ .

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة نستخلص ما يلى: تناول النبى – ﷺ - فى هذه المواعظ ألواناً متعددة من وسائل التأثير، ليصيب الإقناع من العقل، والوجدان من النفس.

١- آثر ﷺ الأسلوب التصويرى من بين الأساليب ليرغب ويشحذ الهمم ؛ لأنه المتفرد بالقدرة على التأثير فى المشاعر، والوصول إلى أعماق النفس الإنسانية محركاً كوامنها.

فتناول من وسائل التصوير المألوفة:

التصوير بالتشبيه، والتصوير بالاستعارة، والتصوير بالكناية، والتصوير بالمجاز العقلى.

٢- **كما تناول وسائل أخرى غير مألوفة من التصوير:**

كالتصوير بالوصف، والتصوير بالقصة، وبالموازنة، وبالإشارة.

أ. التصوير بالوصف أبلغ من الوسائل المألوفة فى التصوير كقوله " **أتدرون ما المفلس** " حيث ينقل المشهد أمام عينك حتى تكاد تحس به بحواسك، وتلمسه بيديك.

ب. والتصوير بالقصة:

من أجمل أساليب التصوير وأعمقها فى النفس، لأن النفس البشرية ميالة لسماع القصة، حيث تجد الأُنس والمتعة فى متابعة أحداثها، وقد تجد فيها ما تريده أو ما تحياه فيترك ذلك فيها من التأثير والاستمتاع مالا تبلغه وسيلة أخرى.

ج. والتصوير بالموازنة:

والموازنة أسلوب كثير الورود فى الحديث النبوى، وقد جمع هذا الأسلوب بين الإمتاع والإقناع، أما الإمتاع فلأن السامع والقارئ يكونان أمام صورة تربط بين شيء معروف وأمر جديد يتعرفانه، وأما الإقناع فلأن الموازنة تجعل الإنسان يأخذ بالرأى يدل عليه الدليل.

د. والتصوير بالإشارة:

لون من ألوان التصوير التى توضح الفكرة وتبين المراد، وذلك لأن الإشارة إذا كانت فى محلها كانت معينة على الفهم، ملفتة للنظر، طاردة الشرور، مشركة فى المتابعة أكثر من جاسة، فالناظر يرى الإشارة، ويسمع العبارة، ويذكر كل منهما بالأخرى(١).

وكانت لإشارته – ﷺ - موضع كبير فى إجادة الأداء فهى تلفت النظر، وتنبه الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر.

ومن هنا نخلص إلى أن النبى – ﷺ - فى مواعظه اعتمد على وسائل كثيرة فى التصوير بعضها كان معروفاً لدى العرب فى شعرهم ونثرهم كالتصوير بالتشبيه، والاستعارة، والكناية وبعضها لم يكن واضحاً فى نتاجهم الأدبى كالتصوير بالوصف ،و القصة، والموازنة، والإشارة وغيرها.

٣- كما استخدم - ﷺ - وسائل فنية تضاعف قدرة التصوير على التأثير. منها إيثار صيغة المضارع التى تجعل المشهد كأنه حاضر مشاهد تراه العين، وتسمعه الأذن، وهو لون بلاغى يقوم على الاستعارة فى الفعل باعتبار زمانه، فيستعار الفعل المضارع لإبراز الصورة، من ذلك ما رواه أسامه بن زيد عن النبى – ﷺ - قال: « **يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ مَا لَكَ.... إلى آخر الحديث** » فقد شبه الإتيان فى المستقبل بالإتيان فى الحال (٢).

٤- آثر النبى – ﷺ - أسلوب التوكيد، وهو من أهم وسائل التأثير فى المخاطبين، حيث إن هذا الأسلوب المؤثر يثبت المعنى فى النفوس، ويقر القضايا فى القلوب ينبثق عنها السلوك الفاضل الصادر عن إيمان وإقناع راسخ،

(١) التصوير الفنى فى الحديث ص ٥٢٥ .
(٢) انظر ص من البحث .

فاستخدم ألواناً منها: التوكيد باللام، التوكيد بالقسم، التوكيد بأسلوب بالقصر، وغيرها.

كما احتفى بأسلوب التكرير احتفاء عظيماً، لعلمه بما لذلك من أثر فى تثبيت المعنى وذلك شيء هُديت إليه الفطرة الإنسانية فكان يعيد كلامه ثلاثاً لزيادة الاهتمام.

ولفت الأنظار لأهمية هذا الأمر، من ذلك قوله – ﷺ - « **ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** » كررها ثلاثاً.[1]

٥- كما آثر النبى أساليب قادرة على احتواء المشاعر الوجدانية والتعبير عنها منها أسلوب الطلب.

والجملة الطلبية أقوى فى التأثير من الجملة الخبرية، وذلك لأن أسلوب الطلب من أمر ونهى واستفهام تمن ورجاء ونداء تستخدم بجانب معانيها الحقيقية فى فيض من المعانى البلاغية التى يقتضيها المقام ويستدعيها التعبير، مما يجعلها أقدر على أداء ما تجيش به النفس من انفعال.

٦- كما نلاحظ أن هذه المواعظ تضمنت كثير من وسائل التشويق والإثارة والتنبيه التى تقوم بدورها فى تمكين المعنى فى النفس بإثارة تطلعها إلى معرفة الخبر، وجلاء ما به من إبهام أو تفصيل ما به من إجمال، ووسائل التشويق المختلفة كأدوات التنبيه وأسلوب التوشيع، وأسلوب الإغراء وأسلوب التحذير والابتداء بالنكرة، وتقديم الخبر على المبتدأ للتشويق وغيرها.

(١) انظر ص من البحث .

المراجع

١- أثر التشبيه فى تصوير المعنى د/ عبد البارى طه سعيد ط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م.
٢- الأدب النبوى د/ محمد عبد العزيز الخولى.
٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق هـ. ريتر.
٤- أسلوب الدعوة القرآنية د/ عبد الغنى بركة ط الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٥- أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان.
٦- الإطناب أنواعه وقيمته د/ محمود شاكر القطان.
٧- الإعجاز فى البيان النبوى د/ عبد الباسط حموده.
٨- الألف المختارة من صحيح البخارى ت عبد السلام هارون.
٩- أنوار الربيع فى أنواع البديع لابن مصعوم.
١٠- الإيضاح للخطيب القزوينى تحقيق شاكر هادى سكر.
١١- البلاغة ذوق ومنهج د/ عبد الحميد العبيسى.
١٢- بلاغة ضروب التوكيد فى أحاديث الترغيب والترهيب د/ رجب محمد سالم مجلة كلية اللغة العربية بإيتاى البارود العدد الحادى والعشرون.
١٣- البيان المحمدى د/ مصطفى الشكعة.
١٤- البيان النبوى د/ محمد رجب البيومى.
١٥- تأملات فى البيان النبوى د/ إبراهيم عوضين ط ثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
١٦- التشويق فى الحديث النبوى د/ بسيونى فيود.
١٧- الترغيب والترهيب للمنذرى.
١٨- التصوير الفنى فى الحديث د/ محمد الصباغ ط الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م
١٩- تفسير الإمام الشعروای.
٢٠- تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول لأبى الربيع الزبيدى.
٢١- حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ط بيروت – لبنان.
٢٢- الحديث النبوى من الوجهة البلاغية د/ كمال عز الدين ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م.
٢٣- دراسات بلاغية فى القرآن والحديث د/ عبد الفتاح لاشين ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٤- الدر المنثور للسيوطى.
٢٥- سنن ابن ماجه للحافظ محمد بن يزيد القزوينى.
٢٦- سنن البيهقى.
٢٧- سنن الترمذى ط دار الفكر العربى.
٢٨- سنن النسائى شرح الإمامين السيوطى والسدى ط الأولى دار الحديث ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩.
٢٩- شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ محمد أبو موسى ط ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٣٠- شرح عقود الجمان للسيوطى ط عيسى الحلبى

٣١- شرح الكافية الشافية لجمال الدين بن مالك ط بيروت٠ ١٤٢٠
٣٢- الصبغ البديعى د/ أحمد موسى.
٣٣- صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣٤- صحيح مسلم بشرح النووى للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ط مكتبة الثقافة الدينية ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٣٥- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص الشيخ بهاء الدين السبكى ط بيروت.
٣٦- عمدة القارئ شرح صحيح البخارى للإمام بدر الدين العينى.
٣٧- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ط. دار المعرفة بيروت لبنان.
٣٨- الفروق اللغوية لابي هلال العسكرى.
٣٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى طـ دار المعرفة.
٤٠- كشف الخفاء ومزيل الألباس للعجلونى.
٤١- لسان العرب لابن منظور ط الثانية.
٤٢- لمحات من هدى النبى- ﷺ - وبلاغته د/عبد الغنى محمد بركة
٤٣- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ط ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.
٤٤- محاضرات فى البيان د/ فريد النكلاوى ط ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٤٥- معجم المصطلحات البلاغية د/ أحمد مطلوب.
٤٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الريان للتراث.
٤٧- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ت عبد السلام هارون.
٤٨- المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية ط ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.
٤٩- مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى.
٥٠- مفتاح العلوم للسكاكى.
٥١- من أدب النبوة د/ أحمد عمر هاشم.
٥٢- من بلاغة السنة د/ محمد بيلو أبو بكر.
٥٣- من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوى ط نهضة مصر ١٩٥٠.
٥٤- من بلاغة النبوة د/ عبد القادر حسين.
٥٥- موسوعة أطراف الحديث النبوى إعداد / محمد السعيد زغلول طـ دار الفكر العربى.
٥٦- موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث د/ أحمد شوقى إبراهيم.
٥٧- نزهة المتين شرح رياض الصالحين.
٥٨- وعندئذ قال الرسول د/ محمد المسير.